

تضخم

من العادات السيئة التي درج عليها النقد عندنا قراءته للأثر الأدبي وفق مثال مسبق ومحاولة ربط كل سمة بارزة فيه بأعمال سابقة سعيا لإثبات أن العمل المنقود فاقده للهوية ما دام يستند إلى غيره . فالناقد منا حين يقرأ كتابا ما يغوص في متاهات ذاكرته ليجث في مخبئها الدفين عن ملامح آثار لها صلة أو شبه بالكتاب المذكور في محاولة لاستنقاظه والتشكيك في قيمة صاحبه وكنما الكاتب يعيش معزولا عن عصره وارثه .

إن العمل الأدبي لا يمكن أن يبنى على فراغ ، وإنما يتضاف كل إنتاج إلى ركام من التراث الإنساني ويتواصل معه ويتفاعل سلبا أو إيجابا فيتأثر ويؤثر ، وما الأعمال التي نشهدها في عصرنا هذا إلا امتداد له وإن بدا للبعض أن هناك قطيعة . وجدلية التأثير والتأثير هذه تزداد حركية في ظل التقدم العلمي والتكنولوجي وتطور وسائل الإعلام فالأدباء والكتاب أصبحوا اليوم على اطلاع بما يجري في مشارق الأرض ومغاربها ولهم هموم تكاد تكون مشتركة فلا يستبعد - والحالة هذه - أن يسيطر موضوع ما على تفكير كاتب من الشرق وآخر من الغرب في نفس الوقت ومقولة « توارد الخواطر لم تقل اعتبارا من قدماء النقاد العرب » . إضافة إلى الدور النشط الذي تلعبه المطالعات في ترسيخ بعض المعطيات وخبزها في اللا شعور فتجري على قلم الكاتب دون وعي منه أحيانا .

إن هذا الكاتب قليل الشأن لتأثره بزيد أو بعمر و قول فيه كثير من التجني لان الحقيقة الادبية ليست حقيقة صحيحة ثابتة حتى تنسب لكاتب دون آخر

فهل ابتدع الطيب صالح مثلاً علاقة الشرق والغرب حتى نقسو على كل من سار على هذا الدرب ونقل من شأنه ونصمه بالتأثر والحال أن كتاباً كثيرين سبقوا الروائي السوداني إلى معالجة هذا الموضوع (*) ولا نرى رغم ذلك أنه تأثر بهم أو أنهم تأثروا ببعضهم لانطلاقهم من واقع اجتماعي متشابه ولمعالجتهم للموضوع من زوايا مختلفة تبعا لقناعات كل واحد منهم وتصوراته .

فالتأثر أمر مشروع شريطة ألا يكون احتذاءً ونقلاً مشوهاً . وليس معنى ذلك أننا ندعو إلى تقليد الغير والتأثر به وإنما ننكر على النقد أن يعتبر التأثر هنة يؤاخذ عليها الكاتب .

« قصص »



(*) انظر في هذا العدد بحث الاستاذ محمد الباردى « جدلية الشرق والغرب » .

تأليف : اسماعيل قدرى

تعريب : أحمد ممو

الغفم

المؤلف :

اسماعيل قدرى كاتب رواية البانى . ولد سنة 1936 بجيروكاستر فى جنوب البانيا . انهى المرحلة العليا من دراسته بكلية الآداب بتييرانا عاصمة البانيا ثم بمعهد ثوركى بموسكو . رجع الى بلاده اثر قطع العلاقات الدبلوماسية بين البانيا والاتحاد السوفياتى نشر له مترجما الى الفرنسية :

♦ جنرال الجيش الميت (ترجم الى أكثر من عشرين لغة) .

♦ طبول المطر .

♦ وقائع مدينة الحجر .

♦ غروب إلهة السباسب .

القصة القصيرة التالية التى أسندنا اليها عنوان « الغفم » مستخرجة من رواية الكاتب التى تحمل اسم « الشتاء الكبير » .

يتحدث الكاتب فى روايته « الشتاء الكبير » عن نهاية سنة 1960 التى شهدت قطع العلاقات الدبلوماسية بين البانيا البلد الاشتراكى الصغير والاتحاد السوفياتى عملاق المعسكر الاشتراكى من خلال شخصية صحافى حضر بموسكو فى دور مترجم بين القادة الروس والقادة الالبانيين خلال الاجتماع الذى أدى الى قطع العلاقات الدبلوماسية . تنعكس الاحداث السياسية على الحياة الخاصة لهذا الصحافى وتزرع سوء التفاهم بينه وبين خطيبته ، ثم يأتى موت والده لكى يزيد فى تعقيد الاحداث فى حياته . وخلال أحداث الرواية تأتى قصة « الغفم » فى شكل حكاية يحكيها فى القاعدة العسكرية « باشا ليان » جندي لآخر إثر تعبثتهما بعد الاستنفار العام الذى

جاء نتيجة لقرار البانيا طرد السوفيات من هذه القاعدة التي تعتبر النقطة المتقدمة لقوات حلف فارصوفيا على البحر المتوسط .

تقع الصفحات المعربة بين ص 438 و ص 444 من الترجمة الفرنسية الصادرة في مجموعة Points في نهاية 1982 وهي الطبعة الفرنسية الثانية .

تأتى قصة « اللغم » فى سياق احداث روائية مما استوجب حذف تدخلات بسيطة لشخصية الجندي الراوى عند توجهه بالحديث الى زميله للتأكد من إصفائه اليه وهذه التدخلات تخرج عن صميم الاحداث فى القصة وترسم الاطار الذى وظفها الكاتب فيها .

القصة :

ذات مساء اكتشف رجل من قريتنا لغما قرب الشاطىء . كان لغما كبيرا عائما حسبه الرجل برميلا من الزيت . فى تلك السنة كان محصول الزيتون ضعيفا ولم يكن للزيت وجود فى أى مكان . ببرميل مثل ذلك يمكن للانسان أن يوفر حاجته من الزيت لسنة كاملة .

<http://Archivebeta.Sakhrit.com>

« لا بد ان يكون البرميل ممتلئا الى النصف لكى لا يرسب فى القاع .. الحمد لله فهذه هبة من لدنه ... » . ذلك ما كان الفلاح يحدث به نفسه .

دخل الرجل الى الماء ثم دفع اللغم فى اتجاه الشاطىء فاستجاب له دون عناء ولكن عندما أدرك حد الماء جثم على الرمال . لقد كان البرميل أثقل مما بدا فى البداية . أسرع الفلاح الى منزله لكى يزف الخبر لزوجته وأبنائه .

عندما جاء المساء قصد الجميع الشاطىء . كان اللغم هناك مائلا قليلا على جانبه . شرع الجميع فى دفعه . ولكن تلك النتوءات الشبيهة بالقرون كانت تعوقهم فى عملهم . انقضى جزء كبير من الليل فى دفع اللغم بكثير من المشقة . وأخيرا عندما تبين الفجر تمكنوا - بعد عناء طويل - من ادخاله المنزل . تساءل الفلاح : « ولكن من ذا الذى يعرف طريقة فتح هذا البرميل ؟ .. » كان الرجل يدور حول البرميل بمفتاح البراغى فى يده وعندما اكتشف وجود

بعض البراغى شرع فى اخراجها من أماكنها ثم - وبعد الاستعانة بسكين - تمكن من رفع غطاء ما . وتمكن الجميع - خلال لحظة واحدة - من مشاهدة بعض الاجهزة تحت الغطاء كانت بألوان زاهية تشبه دوائر الساعة ذات العقارب العديدة . كانت الاجهزة تشتغل ... تيك .. تاك .. تيك .. تاك .

صاح الفلاح :

« إنه لغم!... الهروب !!! » .

لا يمكن أبدا نسيان ما حدث بعد ذلك . صياح وطرقات هوجاء على الابواب وأصوات أقدام .

الجميع يهرولون صائحين : « اللغم! النجاة !... » . وعندما جاء الصباح كان سكان القرية قد جلوا عنها .

قريتنا صغيرة جدا لذلك يمكن اجلاء سكانها عنها خلال عشر دقائق . وبهذا الشكل وجدنا أنفسنا جميعا عند الطاحونة .

<http://Archivebeta.Sakhrit.com>

ما الذى يمكن أن نفعله الآن ؟... هل نرجع الى القرية ، الى المخازن الكبيرة التى فى طرفها أم نلتجىء الى مكان آخر الى أن نعثر على طريقة ما لايقاف اللغم ؟...

كانت الآراء متباينة . « اذا كان لا مفر من الموت فالأفضل أن يموت الانسان فى بيته » ... هذا ما كان يقوله أغلب السكان . أما ذلك الفلاح الذى جلب اللغم فقد كان ينصت الى كل ذلك مطرقا مفكرا . كانت عيناه تعكسان أفكاره : « كل هذا نتيجة رعونتى فأنا يا اخوتى الذى أخرج هذا الشيطان من البحر ثم حمله الى قلب القرية ..! » .

عند منتصف النهار كان الناس قد تسللوا راجعين الى منازلهم تدريجيا . الأكثر جرأة فى البداية . ثم أولئك الذين يسكنون بعيدا عن مركز القرية - حيث القنبلة - ثم فى النهاية النساء والاطفال .. كان رجوعا حزينا فأبواب المنازل تصدر طقطقات خافتة والنوافذ تغلق فى حذر والناس يتهايمسون، كما

لو كانوا يخشون ايقاظ حيوان متوحش . لما جاء المساء كان الجميع قد عادوا الى منازلهم ولم يبق الا ذلك الفلاح الذى يحتل اللغم منزله فقد ذهب مع زوجته وابنائهم لقضاء الليل عند صديق . وبقي منزله خاويا لا يعمره الا اللغم . عرفت القرية الليلة الاكثر صمتا منذ إنشائها واختفت ثرثرة النسوة وأصوات الحنازير عند مورد الماء القريب من الدار التى تؤوي اللغم . هذه الليلة الاولى التى يسعى فيها الرجال الى جلب الماء من العين قاطعين كامل القرية للوصول الى الجدول بعد ساعتين من المشى . ثم كان الرجوع حوالى منتصف الليل ليجدوا نساءهم قد جمدهن الخوف . كانوا متعبين . هل حدث شيء ما ؟ ...

.. لا ..! لقد كنا طوال الوقت مشدودات اليكم بتفكيرنا ... كنا نتخيل أن اللغم سينفجر من لحظة الى أخرى ... يحدث أحيانا أن تصفر آذاننا ... مورد الماء بعيد بعيد جدا . كيف يمكن الذهاب فى المستقبل الى العين ؟ .

كانت هذه هى الليلة الاولى التى تقضيها القرية بلغم فى مركزها . لم يحدث من قبل أن استقبلت القرية ضيفا أكثر ثقلا . حدث ان استضافت القرية قطاع طرق وقتلة ورسلا أتركا فى طريقهم الى « باشا ليمان » وهاربين من السجن وعرافين ... ولكن هذا الضيف الثقيل أكثر ازعاجا من غيره . أصبحت الحياة فى القرية متجهة . هجر سكان القرية الدار التى بها اللغم وكذلك عين الماء .

كان الشيوخ يشرعون فى سرد حكايات الغول الذى قطع الماء على القرية خلال الاماسى . يتحدثون عن ذلك الفتى الذى كان يحمل نجمة على جبينه والذى جاء لكى يقضى على الغول . عندما يتحدث الشيوخ عن الفتى الذى قضى على الغول كنا نتساءل : « متى يأتى الفتى الذى يحمل نجمة على جبينه لكى يقضى على اللغم ؟ ... » . كانت النسوة يتحرقن شوقا الى التزاحم بجراهن عند مورد الماء . أما الرجال فقد كانوا يتسكعون فى أزقة القرية فى شبه غيبوبة . كانوا ناقلين على هذا الوحش الذى حرم عليهم مورد الماء والذى انتصب فى مركز القرية متحينا الفرصة للانقراض .

بعد أن اجتمع الرجال للتشاور حول ما يمكن عمله توصلوا الى ضرورة التخلص من اللغم بأى ثمن كان . ولكن بأى طريقة يكون ذلك ؟ .

تطوع أحد الشبان لجر اللغم الى حد الشاطئ ثم القائه فى الماء ولكن الآخرين عارضوه . لانه لا جدوى من وراء هذه التضحية اذ قد يلقي الشاب المقدام حتفه ويتسبب أيضا فى انفجار القرية .

كان هناك من سمع عن أولئك السحرة الذين يتفاهمون مع الالغام . هؤلاء السحرة يسمونهم « مفككو الالغام » قرر رجال القرية العثور على أحد هؤلاء وجلبه الى القرية . طبعا سيكون ذلك مقابل شىء ما . جمعت التبرعات من كل عائلات القرية . ثم انطلق ثلاثة من رجال القرية على بغالهم للبحث عن مفكك الالغام .

فى ذلك العهد كانت قريتنا صغيرة وبمعزل عن الطرق الكبرى ولم تكن تجاورها قرى كبيرة وبالطبع كانت بعيدة عن المدن التى يمكن أن تأوى مفككى الالغام . غاب الرجال الثلاثة عن القرية مدة اسبوعين كاملين لكى يعودوا فى النهاية بعد خمسة عشر يوما صحبة فني ما . كان الرجل معلقا فوق سرجه بوجه عابس وقبعة كبيرة متهدلة الحواشى يرمق القرويين بازدراء يحمل فى يده حقيبة معداته . كان القرويون يرمقونه باجلال وكانت الفتيات والشابات يتطلعن اليه فى اعجاب وقد وقعن كلهن فى غرامه منذ النظرة الاولى . أما نحن الصغار فكنا نرى فيه ذلك الشاب الذى يحمل نجمة على جبينه والذى تمكن من القضاء على الغول .

اجتمع كل رجال القرية عند المقهى . قال ذلك الفنى : « قد يقدم الانسان رأسه ثمنا لهذا العمل . ولكن سأقوم به لكى أنقذ قريتكم !.. » ثم طلب من كل القرويين مغادرة القرية بأجمعهم عندما فجر اليوم الموالى . كان يفضل الانفراد للقيام بعمله . كان صوته خشنا ودافئا . وكانت الليلة خارقة للعادة . لم يغمض فيها جفن ل احد من سكان القرية . ستكون هذه الليلة الاخيرة لوجود اللغم فى القرية . للمرة الاولى والاخيرة سينام الوحش والصيدا قريبا جدا أحدهما من الآخر فى انتظار الصباح لبدء صراع الموت .

كان الصباح باردا . تناول مفكك الالغام افطاره ثم وضع يديه على حقويه متأملا القرويين ، وهم يغادرون القرية . لم يمكن لاحد أن يراه وهو يدفع باب المنزل الذى يلوى اللغم ثم وهو يجتاز الباحة الحالية . كذلك لم يمكن لاحد أن يعلم أبدا ما فعل داخل المنزل . كان الناس ينتظرون دون جدوى تصاعد

الدخان من المدخنة . تلك هى الاشارة التى يعلمهم بها الرجل أن اللغم قد فكك .

عند منتصف النهار تقريبا خرج الرجل من المنزل وقصد الطاحونه حيث ينتظره الآخرون . كان مكفهر الامح متجههم السحنة . صاح فى خيبة : « لا شىء ..! لم أتوصل الى اى نتيجة ... هذا النوع من الالغام لم يسبق لى أن صادفته من قبل ... » .

شدت كلمات الرجل الانتباه اليه : « لقد سعيت كل جهدى ... ولكن هذا اللغم من نوع جديد لم يعرض لى من قبل ..! إنى آسف .. سأرجع لكم نقودكم رغم أنى أخشى أن تكون عائلتى قد صرفت نصيبا منها ... » .

– لسنا فى حاجة الى النقود ..! لقد فعلت ما يمكنك أن تفعل ... هذا هو المكتوب ..!

ركب الرجل البغلة التى اكترأها وغادر القرية وسط صمت الجميع . بقيت قبعته تتأرجح لفترة ما فى فضاء الشارع الرئيسى للقرية لكى تختفى فى النهاية بعيدا .

كانت الايام الموالية شتائية بحق . شرع سكان القرية فى اقامة المتاريس الترابية الواقية بينهم وبين المنزل الذى يؤوي اللغم . حفر بعضهم مخابى واقية . كان مفكك الالغام قد قال قبل أن يذهب : إن هذا اللغم قد يكون من النوع الشديد القوة لذلك نصح القرويين باقامة المتاريس وحفر الخنادق وسط طرقات القرية لكى يتمكنوا من التنقل . فى الحقيقة فان القرية سريعا ما تحولت الى مجموعة من الخنادق يتحرك فيها الناس منحني القامات كجنود تحت وابل من الرصاص . أصبحت القرية كمعسكر جيد التحصين . صادفت هذه الفترة التحاق ثلاثة من شبان القرية بمعسكر الثوار وكان أحدهم هو الابن الاصغر لذلك الفلاح الذى جلب اللغم الى القرية . أما الابن الاكبر فقد غادر القرية فجأة ذات صباح مدعيا أنه سيسعى الى مدينة بعيدة لكى يتعلم هناك تفكيك الالغام ثم يعود بعد ذلك لانقاذ القرية . انطلق لكى تأتى الاخبار بعد مدة أنه صحيح قد التحق بمدينة بعيدة ولكنه هناك سكران طوال وقته يتردد بين المقاهى والملاهى رفقة الموسسات والراقصات . ثم انقطعت أخباره نهائيا .

« يبدو أنه ليس هناك من سيخلصنا من هذا الشبح ... الآن يجب أن نصدق أن بقية أيامنا ستنتهى برفقته ... » . هكذا كان القرويون يتحدثون.

لم يكن فى القرية من يتحدث عن الحرب بخوف . كانوا يذكرون ذلك كما يحدث عندما يذكرون مهنة ما كما لو كانت الحرب شغلا عاديا موسميا . وفى الحقيقة فقلما كانوا يقولون : « لقد حاربنا ... » بل يقولون : « لقد تبادلنا إطلاق النار مع ... » أو وببساطة أكثر : « لقد وقعنا على اليونانيين أو على الصربيين ... » . كانوا قد حاربوا الصربيين والنمساويين الذين يتكلمون من أنوفهم كما حاربوا الايطاليين سنة 1920 عندما الهب « تشيتشو النفطى » النار فى خزان من المحروقات (وذلك ما الصق به هذه الصفة) ورغم كل ذلك فلم يحدث أن واجهوا عدوا أكثر مراوغة من هذا اللغم هذا العدو دنىء لان الانسان لا يدرى من أين سيكون هجومه .

تواصلت وضعية الخطر هذه حتى بداية شهر اكتوبر 1944 عندما دخلت فرقة من الثوار القرية للمرة الاولى . بدت القرية للثوار غريبة . كان الدخان يتصاعد من المداخل مما يؤكد وجود أناس فى القرية ولكن الساحات والانهج كانت خالية . فى النهاية تفتن الثوار الى وجود الحنباذق والمتاريس . فكر الثوار أنهم وقعوا فى كمين من مواقع العدو لذلك صوبوا رشاشاتهم الى منازل القرية وانتظروا تطور الاحداث . لم يدم ذلك الوضع أكثر من ساعة . جاء قروى من الطاحونة لى يشرح الوضع للثوار ثم خرجت القرية كاملة لاستقبالهم ولكن بعيدا عن الشارع الرئيسى حيث اللغم . تساءل احد الثوار المتقدمين فى السن :

– لكن أين هو اللغم ؟...

أراه أحدهم موقعه . قال الرجل :

– سأقوم بتفكيكه !..

فى الحقيقة كان الرجل يحمل نجمة حمراء على قبعته ، ولكن الناس لم يأخذوا كلامه بجدية ومع ذلك فقد غادر الجميع القرية كما كان الامر عندما جاء ذلك الفني ذو القبعة ذات الحواشى المتهدلة . بعد ساعات ثلاث تمكن الثائر

من تفكيك اللغم وانبعث دخان أزرق من المدخنة الهامدة منذ مدة طويلة . اندفع الجميع الى القرية لكي يجدوا الثائر جالسا عند مورد الماء يدخن . انهالت عليه القبل ثم حمل على الاعناق وغمرته الهدايا واضجره الجميع لكثرة ما سئل عن رغباته . عرض عليه اللحم والعرق والنبيد وعقيد الثمار . وهرولت العجائز في اتجاه منازلهن متسلحات بمعاصدهن أما الثائر فقد قال إنه متعب جدا وسأل فقط هل في الامكان اعداد قهوة قوية له . ثم شرب القهوة في تودة بعينين نصف مغمضتين . كان يبدو كما لو لم يذق القهوة منذ سنوات ... ثم دخل الجميع الى المنزل حيث اللغم ، كان الصمت مخيما على المكان كما في المنازل التي فيها جنازة . كان اللغم هناك مفكك الاوصال باردا كأي جثة . مجموعة من قطع الغيار وأجهزة حمراء زرقاء وبرتقالية ، خيوط حديدية ، لواب ومكابس لامعة .. كل ذلك كان مصففا على الارضية .

نحن الصغار كنا نحدق بعيون كبيرة في مخالب الغول وأظافره المحطمة ونتأمل فكيه المنزوعين والدم الشخين الاسود الذي كان يسيل من أشلائه .

تقدم ذلك القروي الذي جلب اللغم من الشاطئ قرب رأسه من جثة اللغم وانصت برهة :

– لقد مات ..! توقف قلبه عن الدق ..! <http://Archive.org/details/...>

رغم كل توسلات القرويين فان فرقة الثوار لم تبقى في القرية بعد ذلك أكثر من ساعة واحدة . لم يخطر لاحد أن يسأل ذلك الثائر عن اسمه . لم يتفطن سكان القرية الى ذلك الا بعد أن ذهب الثوار . عندها قفز بعضهم على بغالهم بغية اللحاق بهم ولكن دون جدوى .

بعد سنوات ، عندما جاءت مجموعة من الصحفيين لزيارة القرية حدثهم أحد ما عن قصة اللغم وكتب الصحفيون ذلك في الجرائد . هم أيضا حاولوا اكتشاف اسم ذلك الثائر الذي فكك اللغم ولكن دون جدوى . كل ما عرف عنه أنه أنه رجل في العقد الرابع يحب القهوة كثيرا . ولكن كثيرون هم أولئك الذين يحبون القهوة في هذا العالم .

قصة : اسماعيل قنري

تعريب : أحمد ممو

النفق (*)

يظل كهف شقيق والدي كهفا على حدة . كل الكهوف أعرفها وأدخلها بدون كلفة وأعرف ساكنيها ، فهم جميعا أعمامي وأخوالي وأقربائي وأشقائي ، وكل الكهوف متلاصقة الى بعضها متشابهة . إلا أن كهف شقيق والدي على قربه ومشابهته للكهوف الاخرى يبقى كهفا غريبا .

وعمي هذا صاحب الكهف الغريب ، رجل شهم . وأنا لا أعرفه ولا أميز ملامحه ، وإنما حدثوني عن قامته المديدة وعينييه الكبيرتين الحادثتين وعن شاربه الرقيق ، وأبي وبقية أعمامي هم كذلك أصحاب شوارب وشنبات غليظة طويلة معقفة الى أعلى يركز عليها الطير ، وعلمت أنه رجل كريم الخلق هادئ الطبع يهوى الفروسية ، وأبي وبقية أعمامي يحبون الحيل ويربون الجياد .

وتردد على سمعي مرارا أن عيبي يتمثل في تشبهي برأيه وبافكاره حد العناد ، فقد طلبوا اليه أن يترك كهفه ويصير اليهم ، فأبى ... وعرض عليهم هو أن يتركوا كهوفهم ويصيروا اليه ، فأبوا ، ... ويبقى شقيق والدي عنيدا .

وتعودت منذ زمن طويل أن أرقى الجبل ، حيث الكهوف التي نسكن . تعودت أن أدخل كل المغارات وأمرح وألعب وأفرح . واعتدت اللعب مع أبناء أعمامي وأخوالي واعتدت سماع الحكايات البسيطة والرائعة التي لا تنتهي ، وأقربائي يحدقون فن القص ينمقون العبارة ويهولون الحدث البسيط ويشدونني وغيرى من السامعين الى خرافات طويلة مشوقة فى جلسات هادئة مرحة حول الشاي المطبوع والمعاد طبخه ، وكنا نشرب كثيرا ، ونتمدد حيننا ونجلس آخر ونستند الى الحائط مرة أخرى ، وكنا ، إما نخرف أو نستمع ونحن نحدق الفنيين ، فاذا قصصنا نبدع ، واذا استمعنا نصت باهتمام ، ونشرب الشاي الذى لا تنطفئ ناره ونتكى على حائط الكهف .

(*) من مجموعة قصصية للكتاب تصدر ضمن منشورات « قصص » تحمل نفس العنوان .

وقيل : إن شقيق والدي هو الآخر يحذق القص ويرغب فيه ، وقد دعا أشقائه مرات ليقص عليهم قصصه ، فاشترطوا عليه أن يخرج اليهم من مكانه ذاك وهم يهيئون له متكأ حذو كهوفهم ويتحلقون حوله لسماعه ، ولكنه اشترط ألا يقص الا اذا جاؤوه بيته ، هناك فى كهفه . فخفضوا أبصارهم ، ونكسوا رؤوسهم ، وولوا عنه الى كهوفهم ، وبقي هو حيث هو .

وشغفت بشقيق والدي ، ورغبت فى سماع قصصه ، وأحببت معرفته وتبين ملامحه والاطلاع على مسكنه الذى بقي مجهولا لدى . الا أن والدي منعنى عن ذلك ونهرنى أعمامي ونهرنى حتى عن التفكير فى هذا .

ومكثت حذوهم أنصت كالعادة وهم يقصون ويحكون وأنا مع السامعين نضحك وتتهلل وجوهنا للمرويات الغريبة الرائعة التى نسمع .

ونشرب الشاي ونستند الى حائط الكهف ، ويتواصل بنا الحديث الشيق حتى نأكل النهار ونقرض الليل **سمرا** متتابعاً تقطعه ضحكات عالية حتى يغلبنا النعاس ، عندها ننهض ... عندها . وقد فرغنا من كل شئ ، وأنهيينا الحفل البهيج - فرحاً ومرحاً وضحكنا حد الاستلقاء على الظهر وعلى الجبين وعلى البطن أيضاً - ، عندها ، وقد انقضى زمن اللهو ولم يعد لدينا ما نلهو به ، يجيئ زمن الفراغ ، وهو ليس بطويل ، مدة انتظار النوم ، عندها يجيئ زمن البكاء ، فقد تفرق الاصحاب والاعمام والاخوان وراح كل منهم الى كهفه ، وأعود كالعادة الى كهفنا لقضاء نوبة البكاء المعهودة ، فى انتظار نوم يلفني فى غلس ذلك الليل الممتد بأعلام أرود بها الاماكن القصية والمواطن العصية .

أعود الى الكهف وقد فاض الوجد وهاجت المشاعر وازدادت الاشواق وهزنى الحنين الى هناك ، الى أولئك الناس ، ذوي الوجوه الطيبة والابتسامة الحلوة الحبيبة والنظرة البريئة الطبيعية ، الى أولئك الذين لا أعرفهم ، الى شقيق والدي وأهله .

أنا لا أعرفهم ولم أرهم ، ومع ذلك شب معى ذلك الطبع ، لا بد من البكاء ، أبى علمنى ذلك ، عندما نفرغ من قصصنا وثرثرتنا ، عندما تنتهى من أفراحنا وأعلامنا وننتهى للنوم ، عندها يشتد الشوق ويستبد بوالدي فيبكي وينتحب ويعول ، ولم أكن أعرف بالضبط ما الذى يبكيه ويحزنه ، ولكن بطول المدة

فهمت أنه يذكر أخاه الذي لم يلتق به منذ عهد ويظل على تلك الحال مدة حتى يغلبه النوم فيغرق فيه . ونفس الترتيب الذي كان والذي يتبعه كان أعمامي وأخوالي يقومون به وينامون عليه ، فقد حدثني أولادهم عن ذلك وحدثتهم عن أحزان والدي وبكائه قبل النوم . وتعلمنا نحن الصغار ذلك الاجراء وصرنا لا ننام إلا بعد قضاء تلك الفترة الحزينة بكاء ونشيجا .

وسالت مرة والدي - وقد دخلت طور الشباب واشتدت قواي - : ما الذي يحزنك ؟

قال : عمك . شقيقى الذى لا يشاركنا فى أفراحنا .

قلت : شقيقك ، ذاك الذى يسكن وأهله فى كهفه ؟

قال : هو ذاك .

قلت : وما الذى يشدكم عن الذهاب اليه ؟

قال : وما الذى يشده عن الخروج إلينا ؟

قلت : يترك كهفه ؟؟

قال : نعم .

قلت : ولماذا لا تتركون كهوفكم وتذهبون اليه تسألونه عن حاله وأهله .

قال : عسير علينا ذلك .

قلت لماذا ؟

قال : بكهفه نزيل يصاوله .

قلت : نزيل ؟

قال : أفعى ذات رؤوس سبع باضت وفرخت ورامت بقاء بكهفه .

قلت : ماذا بوسعها أن يفعل المسكين ؟؟

قلت : ولما يقضوا عليها بعد ؟

قال : لما ...

ثم قال : والحية كذلك معضودة بالشعابين والشعالب وبنات آوى وبنات عرس وبنات وردان والضفادع واليرابيع والنحل واليعاسيب .

قلت : هذا الذى يجعلك وأعمامي وأخوالي تبكون قبل النوم ؟

قال : هو ذاك . شقيقنا لا يشاطرنا أفرحنا .

قلت : ولماذا تفرحون ؟.. لماذا لا تشاطرونه أحزانه وجهاده ؟

قال : ماذا يسعنا أن نفعل . إنها حية سامة مسمومة ذات رؤوس سبع ترسل النار من أفواهها . لقد قاوم المسكين وما زال ، الا أنه لن يبلغ ما يريد ، إنه يسعى الى القضاء عليها وإخراجها من الكهف . إن نومه متقطع . ولكنه عنيد ، سألناه الخروج من هناك والانضمام اليها في أحد كهوفنا ، فأبى وأقسم أن يصمد في وجه الأفعى وسائر الحيوانات والحشرات التي معها .

قلت : ألهذا كنتم تمنعونني عن الذهاب الى الكهف والتعرف على عمي .

قال : هو ذاك يا ابني . أخاف عليك الموت .

قلت : فاني ذاهب واني لفاعل أمرا ، فان مت فعذري أني تحركت ولم أقبع باكيا ، وإن عشت فاني واقف مع شقيقك حتى النهاية ، حتى النصر .

وتركته في نحيب وعويل يعيش الرعب والخوف . وعندما مررت حذو الحلقات ، وقد تجمع الناس كالعادة يشربون الشاي ويثرثرون ويقصون الاقاصيص المحفوظة والمبتكرة ، وقد حفرت ظهورهم في حائط الكهف حفرا عميقة ، وهم يستمعون باهتمام ، لكزت الشباب منهم ، أترابي ، وضربتهم بأصابع رجلي في جنوبهم فانتبهوا إلي ، عندها أقيت على مسامعهم خطبة تفننت فيها حتى يكون لها الوقع الذي أبغي ، ولا غرابة في ذلك ، وأنا أجد هذا الفن الذي نشأت عليه وتلقيته عن شيوخه من جدودي وأهلي وقومي .

وانتصب الشباب واقفين متحفزين ، وقام الأعمام والأخوال متثائبين . تذكروا خيولهم وهموا بإسراجها الا أن أجسامهم نحيفة متعبة مكدودة نخرها الشاي وأنحلها القعود، فوقفوا ينظرون الى الجياد، ولا فارس تقدم وامتنطى حصانه ، وتفقدوا سيوفهم التي أكلها السوس والصدید ، وبقوا هناك يتبادلون نظرات الحيرة والذل .

وقامت السواعد تحمل المعاول ، وهبت ريح الشباب تنشب الفؤوس في الجبل تفتح نفقا يؤدي الى ذلك الكهف ، كهف شقيق والدي . والعمل شاق طويل ولكنه يهون أمام عزمهم وجدهم ولن يبقى كهف عمي على حدة ، كل الكهوف سيعبرها النفق ، وسيوفر منها الشباب الى هناك ، الى الأفعى .

رضوان الكوني

خبز الكانطينة

الشيخ شربونة يحمل الرقم 13 من سلسلة عملة المنجم . فهو أقدم عامل ما يزال على قيد الحياة . يعرف الجبال بكرا لم تغزها الابرة ، ولا خضتها الانفجارات . لقد كان أول من ألقى بالمسحاة . واستجاب للعمل المؤجر بشركة الفسفاط وقد انتصبت .

هذا الشيخ الاسود بعنقه الطويل . وأقدامه الغليظة . والشعر الاشعث المخلوط بالبياض يعلو رأسه ، يكسر وجهه المغضن ، كان فى يوم ما عاملا فلاحيا . يعزق الارض ، يعتنى بالنخيل ، يغنى ، فى أحضانها يعانق أفراحه ، ففيها رزقه . ومنها سكره . كان يقود حماره فى الصباح الى (الغابة) ويعود الحمار بصاحبه فى المساء . ولا يفضل أحدهما الآخر فى علم الحياة . ولا حاول أحدهما التعرف على غير ما هو فيه . كانت الحياة تحت ظل النخيل : اذا غنى ، واذا ضحك ، واذا بكى ، واذا صلي . والحمار يؤمن على كل ذلك بالتهيق . وظلت الحياء كذلك ، الى أن جاء اليوم الذى سمع فيه نداء العمل بالشركة . هذا شىء جديد لابد للانسان أن يتعرف عليه . قال شربونة فى نفسه : ما معنى أن يسافر الانسان ؟ فيذهب الى أبعد من الغابة . سوف أجرب حظى ، حتى لو صادفتنى الاهوال . فأنا رجل أسود . وقد أعود فلا يرى لونى . أو ليست النقود فعالة . يكفى ما تعاملنا مع التمر وما فعل من أجلنا شيئا .

ليس يدرى المغفلون من أى ناحية يؤتون . هكذا كان شربونة يكرر ويستعرض كل الوصايا التى تلقاها . وهو يلج النفق . وقبل ذلك رفع رأسه ليرى ما على الجبل من أثقال .. اللهم احفظ عبدك شربونة . قال ذلك وهو يرتجف . وكاد يعود مزورا . وقبله فعل ذلك كثيرون . ولكن الماضى دفعه . فوجد نفسه يتوغل فى الظلمة ويفقد آخر خيوط للنور التى تربطه بالأحياء . الا أولئك الذين يقاسمون المصير . حين غادر « السبيلاج » وانحرف الى « الشانطى » ولم يعد يؤانسه غير ضوء الفتيلى ، كان يمشى بجذر مخيف . كبر سمعه . حتى أن كل حواسه تحولت الى آذانه . فدقات قلبه وطققة أصبعه

وحتى ما يصدر عن استه أصوات كبيرة . تحملها الآن الابواق وتوزعها على كل فجوة في الجبل . وحين انطفأ المصباح أقبل الليل البهيم . سواد فى سواد : قال شربونة - وهو يرتجف - الخطوة قد تودى بك . حتى لو كانت للوراء ، نسى أنه يحمل صوانة . وبإمكانه قدحها . احدى الوصايا الهامة سقطت من عقله . تسمر فى مكانه . شله الخوف . فما مر فى حياته بمواقف الحرج . هل يصيح طلبا للنجدة ؟ ومن عساه يسمع ؟ والكل فى كرب . وأخيرا بكى . بكى ليسمع نفسه . فليس له ان يلومها بغير ذلك .

« .. يا رب شربونة ، هل كتبت على أن أبحث عن العيش فى السماوات او فى الاعماق على رؤوس النخيل . أو تحت وطأة الجبال . من خطر السقوط الى عسر الصعود ! » وصورت له نفسه السقوط من أعلى نخلة كان يربها . وانه ليتوجع اذ جاء الاجوار . وجاء الاسعاف وان كان بداثيا فلا شك فى نفعه وقد حمل على حماره والتف حوله الناس يسألون ويواسون . وجزع أهله وبكوه . وكان أن شفى أما الآن يا شربونة فليس لك الا الله « وسيدى بو على » يا سلطان الجريد انى ابنك حتى ولو كنت ابن أمة سوداء . ولمع النور من بعيد .

كان يجلس على الارض ملتفا فى معطفه . يخطط على الارض بأصبعه يرسم خطوطا متقاطعة . وأخرى متوازية . وقد تابع بفكره ، حركة القاطرات . وهى تجر العربات المحملة بالتراب . ذلك الذى تتعرض الانفس لاختطار الموت من أجله . ويتوقف عقله عند هذا الحد . فيسأل : ترى لماذا يدفعون لنا من أجل ذلك مالا ؟ وأردف هازئا : يشترون ترابا ! لا بد لمن يفعل ذلك أن يكون غبيا . والحمقى لا يحصون . وكاد يضحك لولا أن همومه سدت عليه الطريق فاظلمت . سعيد ابنه فى المستشفى . وصالح فى السجن . وعمار فى الجندية .

وغيرهم ينتظر مصائر أخرى . لقد أنجبت لوحداك ما تنتجه مجموعة من الرجال . وكنت تجابهم بدون مبالاة فمن احترق فأمره لأمه . ومن جاع فليس بأفضل من القحط . ومن تعرى فقد خلق هكذا . أنا ما فكرت فى حياتى . حتى أفكر بأمرهم . كنت تقول هكذا . ولكن جاء اليوم الذى تدفع فيه ما تخلد بذمتك فيها انك مغموم . والحزن يأخذ بخناقك . لأن ابنك جلال - وهو من أفردته بحبك والعناية - قد جرك الى نهر الأسى وأغرقك هناك .

وقطعت عليه زوجته التماذى فدخلت تسأله : اذن لن يفرجوا عليه ؟ كلا قال شربونة : لقد لبست العجز . والذل . والمسكنة . فما أفادنى .

ولولت المرأة : ويحى على ولدى ! سوف يموت ، وما فعل شيئا ! تتركه بين أيدي الكفار . يلقون عليه نقيمتهم حتى يموت .

قال شربونة : لعنة الله على الباي . وهل أقدر على غير الحزن يا ولية . وواصل يواسى زوجته : ألم تتعودى على مثل هذه الاشياء ؟ ألم نتعاهد على أن نترك أمرهم للرب . يفعل بهم ما يشاء ! فمالك والشيطان . تعلقى بالميثاق ، وما عاهدنا الله عليه .

قالت الزوجة : ولكن فى حق الآخرين لو ماتوا كلهم ما مكنت الحزن ان يخرق قلبى . ولكنه وحده فى مكانه وأنت تعلم .

ودخلت النائحات من الاقارب والجيران . فنفضت يدها من كل حديث . وقامت تستقبلهن بصراخ تلين له صم الاحجار . فحتى الطيور التى كانت تمر وقتها . ترنحت بأجنحتها وتوقفت عن الطيران .

يرقص شربونة ، يفتى ، يكرج الخمر من زجاجة فى يده ، والاصحاب من حوله يصفقون ، ويتفرجون . وما له لا يفعل ذلك واكثر . وقد تلقى اول هدية من السماء ، فقد أصبح الآن ابا بحق ولاول مرة ينتج ثمرة صالحة فيخرج من صلبه مخلوقا ذكرا . وأطلت القابلة العجوز : ماذا نسمى الطفل يا شربونة .

قال وهو يتمايل : سميهِ « ابن شربونة » وقال لاصحابه : أليس كذلك وليس فى الدنيا غير شربونة واحد . ابن شربونة هو ابنى .

قالت المرأة : طفلا تبقى . حتى لو غمرك الشيب . وأردفت : ماذا تفعل بكل هذا المرح ؟ قسمه على أجزاء حياتك .

ضحك شربونة واعتبرها نكتة حلوة وقال يخاطبها دون أن يكف عن الرقص : سميهِ « جلول » المهم أنه ابنى شربونة أسود مثله وجميل . وأمعن فى الرقص والغناء « محلى خبز الكانطينا » والاصحاب يصفقون .. ويشربون ويمرحون .

قالت امرأة شربونة توقظه : انهض يا رجل ! الا تذهب لعملك اليوم ؟ تقتل نفسك فى الليل ، تغرقها فى الحمرة ، تحملها ما تعين عن حمله الجمال .

وانصرف كعادتها كل صباح تضع فى المخلاة ما يحتاج اليه فى يومه .

رفع شربونة رأسه بعسر . وفتح عينيه فى اجهاد . ثئاب . ووقف يتمطى ولم تمهله الساعة فقد غمزت اليه أن لا يتمهل . فالقطار لا ينتظر أحدا . فكان يسرع فى المشى ، ونسمات الصباح الباردة تصفع وجهه . وما ان لامس العربى حتى أحس بها تتحرك . فأسرع يلتصق بها ووضع رجلا على المدرج والاخرى مازالت معلقة فى الهواء . وأخيرا انحسر بين القوم . لم يكن يتبين الوجوه . ولكنه يعرف الناس باماكنهم وأصواتهم ، تكدس الصمت ، ولم يعد يسمع غير صرير عجلات القاطرة وصفيرها الذى يصدر عنها فى بعض الاحيان . وألقى القطار حمولته على باب المغارة . ونزل العملة مسرعين فكأن النشاط كان ينتظرهم هناك . وتفرقوا فى مغاور الجبل . كل يعرف مكانه ويهتدى اليه ، برغم الظلام . ووعورة المسالك .

نزع شربونة عنه ملابسه . وبقي شبه عار لا يستتره غير ثبان ، وأعطى أوامره الى من معه كى يسير العمل على حسن عادته . واستهل عمله بأن تحسس الطبقة ومرر يده على ظاهر الحفر . ثم اسند « مشعبه » اللولب ببطنه . وغرز الراس المذنب فى الموضع الذى تخيره . وأخذت اليد تعمل واللولب ينخره حتى غار . وبحركة عكسية نزعه وليتفقد بعض الرفاق ويتثبت من حسن العمل . وعاد الى ما كان فيه حتى انهى الثقب المحدد . فأزال المشعب . وقد كسا العرق كل جسمه . ثم نادى « البوتشه » ليقدم له صندوق المتفجرات . وقد وافق رئيس المركز على شرعية عمق الثقب ، وكان يقرب النار من الفتيل وهو يصبح لينذر الآخرين « أبروش » وبعد أن ركض لمسافة غير بعيدة . انكفا على وجهه . وحدث ما يشبه الزلزال . وانطفأت المصابيح بفعل الصدمة ، والضغط ، فأشعلوها من جديد وقد انجلى الغبار . وسرعان ما التهمت المرافش ما تساقط من تربة وحملته عربات صغيرة . دفعوا بها الى الممر الرئيسى .

وانبطح شربونة ينبش التراب . ويوسع الفرحة بمعوله . والعربات الصغيرة تحصى عليه عمله . والفرحة تتسع حتى احتوت شربونة . كان يعالجها ويلعن : ملعونة هذه القاصمة أبوها كلب .. وأمها .. اضعنا يومنا قال رفيقا له وسوف نضطر للبقاء اكثر وقت حتى نوفى (بالياطاش) (المقدار) رد شربونة ليكن فذلك حظنا اليوم . فمن أنا حتى اتبين موضع الفسفاط النقى من (المارنى) .

بل ما ذنبى اذا كانت الطبيعة غشتنى . وانهمكا فى العمل . وكان الجبل يمد تحت أقدامهم ، ويرتج بفعل المنفجرات .

انا أتهرب دائما من « الملعونة » الطبقة الثالثة فحظى فيها عصى ، ولكن ذلك المأفون « دورشى » يحشرنى فيها قسرا ، لأننى رفضت دائما عملا خبيثا يريده متى قال ذلك . وتقل ، ليس لنا جهد أكثر مما بذلنا ، يكفى أننا سنخرج احياء ابق الامور كما هى اليوم ولعلها فى الغد تجرى على وجه آخر فالجبل اكبر من العمر واطول .

من الداموس ، يذهب كل العمال الى السوق مباشرة ، يتصرفون فى أمورهم يجلبون الخضر ، واللحوم ، والدقيق ، والزيت ، السكر والشاى ، حتى الملح فى أغلب الظروف ، فليس فى أكوأخهم غير أوانى الطبخ . واكثرهم ليس فى كوخه من يتولى الطبخ فيفعل ذلك بنفسه . على أنهم يفعلون ذلك جماعيا . كل مجموعة تتألف حسب الانتماء . اذ هم موزعون جغرافيا وباحكام مقصود ، فالجريديون يسكنون الكاهنة ، يجاورهم فى طيبة وامن المغاربة . وكيف لا يتألفون . والاولون يتقنون الثروة . والاخرون يحسنون الاستماع . لما جلبوا معهم من صبر . فكان الهدوء يخيم على هذا المجتمع المعزول نسبيا . أما الليبيون فكانوا يحتلون السوق بما جاورها فهم العملة والتجار . واختلاطهم بغيرهم من العملة من أجل ذلك فقط مجتمع مغلق لا يمكن اختراقه . فقد أحسوا انهم غرباء فانحازوا الى الجهة اليمنى . وطرقوا الابواب بلطف . ليهمسوا فى الأذان لاجنبية بكلمات ليست فى صالح اخوتهم الاشقاء .

وأهل سوف امتطوا الربوة العالية . وحزموا انفسهم بالجنسية الفرنسية فنظرتهم الى انفسهم على أنهم منهم . وما هم وتقوم الادلة فلا يصدقون . ويبقى الادعاء قائما .

وهناك شذرات من مختلف الاجناس ، تنظر الى أقرب نقطة من موطنها وتأوى الى أهله تعاشره . وليس لهذا النمط من المجتمع من رابطة فحتى المسجد وهو المكان الذى يضمهم فلا يختصمون ، ويتوحدون فى العبادة - يخاطب كل منهم الرب بلهجته ويطلب فى سره أن يعاقب الآخرين .

أما الاعراب - وهم كما يعتقدون - أصحاب الحق ، والارض فيكونون خلايا قبلية .. يحيطون بالمنجم . كل قبيلة تنتسب الى اب يجمعهم عن بعد جد واحد فهم كالوانى المتشابهة لكن ما يداخلها متنافر .

هذه مشيئة الشركة بتخطيط من السلط الحامية . وهكذا حصلت على المجتمع الذى تريده . وفى السوق الوحيدة هناك يلتقى الكل تزول الحواجز وتبقى المصالح : الاخذ والعطاء . البيع والشراء . الربح ، الحاجة ، ومن تلك المصالح ما جمع بين شربونة ، وأحد العملة التجار الليبيين . وثمة صلة العمل فالاول « سودفي » والثانى بوايزر دى كادر فى حضيرة واحدة . وعمل مرتبط وثمة وجه تشابه وتعاطف . فكلاهما أسود . فكان شربونة . يقصده فى دكانه اثر الفراغ من العمل ، يساعده فى العمل . يحمل عنه الاشياء الثقيلة يضحكه بنكاته . يطبخ له الشاى . يغنى له متى سمحت الظروف يمرر له قوارير الخمر خلصة عن أعين أهليه وقومه الذين ينكرون كل الذنوب جهرة ولا يأتونها الاسرا فاذا غربت الشمس وضع شربونة مخلاته على كتفه وقد حملها بما أمكن من مهملات السوق وعاد من الطريق الذى به حانوت اليهودى « موشى فحل » فيضيف الى الحمولة يدخل الدكان يرفع رأسه ينظر الى الخير المتراكم . والى النعيم على وجه موشى ، وأبنائه وأهله العاملين معه . ويعود الى تلك الايام . حين كان موشى . يحمل خرجه على حمار . يقصد حضائر العمل يتذلل يعرض بضاعته كأنما يطلب احسانا . لا يمكنه التحرك وحده . كم مرة رافقه شربونة لوجه الله فقط . وحماه من الشر . شر العباد ، وشر القفار ، والكلاب ، قال شربونة فى نفسه : الكلب الآن يحول نظره عنى ، فقلو تحطمت زجاجة فارغة لاغتاط . ولومت أنا الآن لما نهض من مكانه . وقال بصوت مسموع : هات الزجاجات يا ولد . فسأبقى طول حياتى أعمل من أجل اسعاد موشى . وجلب الرزق له . ورد عليه اليهودى : لقد اتقنت الهذيان قبل الآن والتفت الى العاملين عنده قائلا : قلت لكم لاتركوه يسحب لسانه . اعطوه خمر حتى لو لم يكن معه نقود

عاد شربونة الى البيت وتحلق حوله الصغار من أبنائه وبناته . ونشر ما فى المخلاة . افرغ ما فيها . احتفظ هو بالزجاجات فقط .. امتدت الايدى . وكشر اللجاج والخصام . ووصل الى الركل والصنع المتبادل . ولم يفد الردع والتهديد لعودة الهدوء ، فمن حقهم أن يفعلوا ذلك ، وتلك من عاداتهم .. ليبك المقهور ، المغبون . وينتفخ المعتدى زهوا . وضحك شربونة . حتى يظن من يراه أن فكاهة لن يعود الى الوضع الطبيعى أبدا . وبادرت زوجته عاتبة :

— ما الذى أضحكك . فعوض أن تغضب . وتقف فى وجه هذه التصرفات تجد فى نفسك القدرة على الضحك !

فكف عن الضحك . وقد تخلى عن الكأس . وخاطبها :

— لابد من غاصب ومغتصب ، وقاهر ومقهور ، فتلک سنة الحياة يا زوجتي الجاهلة ، ولو لم يكن كذلك ، فمن يتولى عنى التعامل مع الاخطار ، ومخاصمة الجبال . وهل أقدر على الجلوس مكان « باسكال » المدير . فحتى وظيفة « فاسبار » وهو يطوف على الحراس لن أقدر عليها أنا الذى لم أستعمل القصب الا سبسيا ، حينما الناس يكتبون بالاقلام . ولكنى أتمنى ذلك لابنى جلولى — جلال المفضل . وتوجه الى أطفاله : هذا سيكون سيدكم . يذهب كل يوم الى المدرسة ، يكلمه المسيو « بنياميد » (تحريف بن يحمى) المدير ، وتسأل المتبکيت : من منكم كلمه مسيو دشارى أو بنى احميد من منكم تكلم مع مسيو ؟

قالت واحدة من البنات : أنا المسيو « قالو » يكلمنى ، بل ويضمنى يريد تقبيل . وقالت اخرى : لو شئت ذلك واستسلمت ، لادخلنى المسيو « بيكالو » الى غرفة نومه . اياكن قالت الام محذرة . بعد أن غمرت بعينها خفية . لقد كررت عليكم نصحى . هناك أمكنة فى أجسام البنات . يسكن فيها الشرف ، وهو طائر سرعان ما يجفل اذا افزع ، ولن يعود اذا ما طار ابدا .

كل أبناء شربونة الابناء منهم والبنات سقطوا فى الشارع .

تدربوا على الضياع . على الحرمان والحساسة . تعانقوا مع الجهل ، وهاموا فى دروب مسترابة . لم يرسم اسم أحدهم فى سجل المدرسة غير الابن جلال ، أو جلولى . فقد فعل به ذلك . ولا يدرى أحد من الذى فعل به هذا . فبين عشية وضحاها . وجد فى أحضان المدرسة وبين يدي المعلم « دشارى » نعم هو يقوم له ببعض الاعمال البسيطة . كالتردد على « الكانتينة » وغسل الصحون واطعام الكلاب ، ونظافة الدجاج .. أعمال بسيطة ، وليس فيها ما يشين ، بكسب المعرفة بذلك والعلم . ولا عار فى عمل يدر علما .. فغيره من الصبيان يقوم بأشق الاشغال . من أجل أن يتلقى فضلة كسرة ، أو طعاما من شأنه أن يلقي ، وفى الآخر يجد نفسه يدعى « مون آراب » .

وفتك شربونة بالزجاجة الاولى وامتنى الثانية حين سألته زوجته وللمرة المجهولة عددها :

- اما آن لك أن تكف عن معاقرة هذا الداء ؟ وتوفر لنفسك الصحة ولأطفالك الخبز : ألا تخجل من نفسك ؟ وأطفالك يقاسون الجوع والحرمان ! يتسكعون أمام بيوت النصارى . يتسولون الطعام ، الا تتصور ما قد يقدم لهم .. ؟ أو ما استمعت الى بناتك ؟ أو تريد .. أوف قال شربونة : لو أخرجت كل تراب الجبل على كتفى هذه . ما كفيتهم . فلينتشروا فى الارض ولياكلوا ما يقدم لهم . فليس فى الطعام ما يقتل .

قالت المرأة يائسة :

- والله لا أدرى ماذا أصابك يا رجل ؟ لقد كنت غيرك الآن .

كدت تفقد كل حسنة عرفتھا فيك . تغرس فى نفسك مكانها سيئة مقية .

- وكيف تريد يننى ان اكون ؟ وأنا انما أعائش أخلاطا من البشر ، جمعهم الطمع من كل مكان . ان كان بلدى أنا على مرآى من العين ، فان أغلبهم قد فقد صورته وامحت . فقد حدثنى غير واحد انه لم يعد يذكر عنوانا واحدا هنالك .

- اذن فانت تظن أنك أفضل من غيرك وانت بهذه الحال ؟

- بل أنا شربونة . يكفى أننى أجلب لهم الطعام . وان كان سيئا ولا يكفى فذلك موكول الى نهمهم . تصورى أن أبى لم يعمل يوما واحدا من أجلى .. تركنى أتخبط فى الاحشاء ومات . ومع ذلك فانى أترحم عليه .

وبكى . أو هكذا خيل اليه .

- وامك ؟ ماذا فعلت من أجل أن تصير رجلا . لقد خرقت المستحيل .

قال شربونة :

- معك حق . افعلى أنت نصف ما فعلته هى .

وضحكت زوجته قائلة :

- الفرق بيننا ، أنا وأمك ، كالفرق بين الناقة والارنب .

- ماذا تعنين بربك بهذا الذى تقولين .

وأطربه ذلك وقد أوفى على نهاية الزجاجة . ووقف يحزم نصفه . وهى عادة ألفها أطفاله فالتفوا حوله يصفقون واللحن معهود « محلى خبز الكانطينه » .

من يرى شربونة وهو يمشى منحنيا يعتقد أنه يحمل أثقالا . وينظر الى صفرة في وجهه الاسمر ، فلا يشك في أنه على موعد مع الموت . وعن طريق المشنقة . ولكن ما ينفس شربونة اكثر من هذا وللمرة الاولى يذهب الى مركز الشرطة بهذا الاحساس . وقد كان يرتاده في كثير المرات لسماع قصص عن أولاده وما أجرموه . فما يراه غير بناية عادية يسكنها أقوام لمدة معينة ثم يمرون عليها بعد ذلك ساخرين . ولما اقترب من البناية انهار . ما له يرتعد؟! جمع ما تبقى من شجاعته . واستنجد بالرجولة ليطلق الباب فما أجابه أحد - أعاد الطرق بأفضل هذه المرة . ولاحظ أن الباب قد تزحزح ولم ير شيئا ، تركوه مصلوبا لمدة طويلة وحده حتى الخوف تخلى عنه اذن لقد تركته نفسه وحيدا.. كما يفعل بالجثث حين توارى .

ثم فتح الباب فجأة . وبهمجية مقصودة . وأطل « البرفادي » بنفسه وتكشيرة على سجيته جعلته يبدو في عيني شربونة كما لو كان أحد المنكرين . ثم أخفى على تلك السحنة ابتسامة صفراء ملأت وجهه سخرية . واحتقارا . حيث خاطبه وفتح شفتيه وتحول أنفه الى جهة اليسار :

- هذا انت . ادخل . ادخل . فحسابك اليوم عسير . ولن تخرج من هنا كما دخلت أبدا . هنا نصنع من الرجال اناثا . اطرح من حساباتك المعاملات التي كنا نتلقات بها . واولادك يذنبون .

- رد شربونة : امرك يا سيدي .

- يا شربونة : الاسود ، يا سكير ، يا ديوث - قال صوت من خلفه - وحين أمكن له أن يلتفت عرفه انه سى .. العون التونسي .

- فقال شربونة : صباح الخير يا سى ..

- صباح الخير . ايها الاسود الحبيث . متى كنت تحسن الادب ؟

وقال البرفادي :

- اتركه لي فليس هذا وقت ما أنت بصدد .

والتفت الى شربونة : أتعرف لماذا دعوتك ؟

– لا أعلم يا سيدى .

وصفحه على وجهه . حتى أحس أن البياض نبت بوجهه .

– كل مصيبة فى هذا البلد من صنع أبناك كل جرح من يدهم كل مفقود لديهم . نصف عملنا اليومى نقضيه فى مشاكلهم والآن جاء التطور من الاجرام الى السياسة .

ولم يفهم شربونة المقطع الاخير . فقال :

– تحول محمود من الاجرام والعنف الى السياسة ..

ولطمه صائحا : خذ يا بنى الكلب . أنت تؤيده اذن . لا يستغرب المرء منكم شيئا هذه الايام .

ARCHIVE

– قال شربونة ممعنا فى الجهل :

<http://Archivebeta.Sakhril.com>

– أليست السياسة محمودة . فطول حياته كان ابنى جلوس سيسا لطيفا متادبا .

– فقال العون التونسى محتدا :

– لا انها سياسة تعادى فرنسا ، تعادى السيد البرقادى . ومسيو باسكال مدير الشركة . ولاندوز قائد الجندرمة . والمسيو رامونا المراقب المدنى يريد ابنك ان يقتل كل هؤلاء ويقتل المهندسين الذين يعطونكم الخبز ، هل فهمت ؟

قال شربونة : اقتلوه ، أنا لا أريد هذا . ولا أوافق ابنى عليه . لا . أنا برىء من هذا . تريدون أن اطرحه من أبنائى ؟ افعل ! امضى بكل أصابعى على ذلك . هاتوا الورق . ها .. كنت أعتب على الذين يعربدون من أبنائى . ويسرقون . اما الآن فانها أعمال تفضل هذا بكثير .. أليس كذلك ، يا مسيو البرقادى . وكر راجعا فى حركات تمثيلية مسرسله .

- أليس هو عندكم احبسوه طول حياته . ما ذنبى أنا حتى الطم أو أشتتم ليسجن هو وليتحرر الابناء الآخرون . فلا حرج بعد اليوم فيما تفعلون : يا ابنائى البررة .

قال البرقادى وهو يظهر الابتسام :

- حسنا اذهب فى سبيلك واحفظ لسائك . فمن اجل هذا دعوتك . ولا أريد فى البيت بكاء وعويلا ، ونساء .. أفاهم !

قال شربونة :

ما وقع فات وما فات لن يعود .

غادر شربونة مركز البوليس . وهو فى المدارج توقف ، فما يدرى أصاعد هو الى المركز أم نازل منه . وان رأسه ليغلى . وان نفسه لتلعنه تؤنبه .. تركت أعز كنز فى حياتك سجيننا للاهانة والتعذيب . وعوض ان تبكيه . تدافع عنه . تصفع البرقادى وكل عون ظالم . فاذا أنت تحاكمه بين أيديهم ، وتدينه تقسو عليه تغلظ له فى العقوبة . كم أنت حقير يا شربونة . تعتز بالائمة وتتنكر للمشرفاء ، تف على طينة أنت منها « وسمع صوتا يهتف به فنظر أمامه ، وحين عانقت رجله الطريق . تنبه الى أن هناك من ينظر اليه نظرات ليس فيها شماتة كمثل التى يلقاها من قبل وهو يغادر المركز النظرات فيها معان لم يفهمها ، من رجال يراهم عن بعد دون أن يستطيع مصافحتهم حتى بالنظر . ها هم الآن يقتربون منه يلامسونه باليد والكلم . بالروح والجسد ، وامتدت الايدى تصافحه تشد على يده وعزمه ، وانهاالت الكلمات الرصينة :

- لا تتحسب يا شربونة الله معه ، أنت رجل الاخطار . تدربت على اختطاف الخبز من برائن الموت ، تدربت على مقارعة الجبال .

- أتضحى من أجل خبزة بحياتنا داخل الدهاليز ، ولا تضحى بها من أجل وطن كامل .

- كن رجلا فظامعهم ، ولا تضعف .

ونحن معك فى السراء والضراء .

أحس شربونة انه استتال حتى تراءى له البرقادی ، وسى .. وباسكال
وكل اجنبى فى الشركة قزما ، ودارت أفكار فى رأسه هشى لها وظهرت انبساطا
على وجهه ، وقصد السوق .

قال فى نفسه وهو يسرع الخطى .

.. لم اسمع فى حياتى كلمة أقطع من التى قذفنى بها العون سى .. وكنت
أحسب أنه سينظر الى فلا يتنكر . أما الآخر . فقد أهاننى ولطمنى . ولكنى
لا أحمل نحوه حقدا . فالعداوة بيننا غير خافية . وسوف نتصادم فى يوم ما
واذا كان اليوم هو الاقدر أمام عجزى ، فغدا تزول قدرته وينتهى عجزى حتما .

أما أنت يا سى .. فلن تنتمى يوما .. »

ودخل البيت يحمل خضارا ولحما ، وخمرا ، وصاح فى النسوة :
« الناس لا تبكى الاحياء اذهبوا بسلام والا فضحت عورتى » واجتمع اليه اولاده
والبنات وحتى الاحفاد فخطب فيهم ساعة والزجاجة لا تفارق يده وكالعادة
صفق الاولاد مؤمنين على كلامه ، واذا هو يرقص والاود يردون : « محلا خبز
الكانطينه » وللمرة الاولى تشارك الام فى الحفل وتنظر الى زوجها فى رقصته .

تونس فى 5 نوفمبر 1982

حول أصول القصة بتونس

مقدمة :

كتب الكثيرون حول أصول القصة بتونس ، نذكر من بينهم القصاص محمد صالح الجابري . وأصول القصة فى مفهوم العديد من المهتمين بهذا الباب تقف عند القرن التاسع عشر ، أى عند البدايات العربية فى ميدان القصة بمفهومها الحديث ، وهذا تحديد مغالى فيه . ولو كان ذلك التحديد « علميا » أو « شبه علمي » لقصر مفهوم القصة على المفهوم الغربى الاوروبى للكلمة ، أى المفهوم الحديث الذى بثته وروجت له الثقافة الغربية الطاغية عسكريا وعلميا .

ونحن نعلم أولا أن فن القصة والرواية فن انساني ، قديم قدم الانسان على الارض وأنه اتخذ اشكالا فنية مختلفة حسب الحضارات وحسب درجة تطور الانسان وتشعب التقنيات .

– ونحن نعلم كذلك أن العرب اسهموا فى هذا الباب اسهاما عالميا يشهد به الجميع ، متأثرين فى ذلك بما سبقتهم اليه الحضارات الاخرى ومؤثرين بدورهم فى فن القصة والرواية تأثيرا عميقا متواصلا نجد صدها لدى أكبر قصاصى الغرب المحدثين وكذلك لدى قصاصى أمريكا اللاتينية المعاصرين . ويكفى العرب شاهدا على ذلك فى ميدان القصة أن قدموا الاثر الشامخ والبناء النادر المثال : **ألف ليلة وليلة** (I) .

– ونحن نعلم أخيرا أن تونس أو افريقية لها رصيدها التراثى الهائل فى ميدان القصة . فقد أنجبت هذه التربة القصاص المشهور عالميا : أبلوس

(I) انظر مثلا : **ألف ليلة وليلة** ، المطبعة الشعبية للطباعة والنشر ، 4 أجزاء ، بيروت ، بدون تاريخ .

صاحب قصة : **المسوخ أو الحمار الذهبي** (2) والتي نشر ابراهيم بن مراد بعض فصولها المترجمة في كل من **الحياة الثقافية وقصص** . وقد ترجمت هذه القصة الى جل لغات العالم . وقد كتبها مؤلفها باللاتينية في قرطاج أواخر القرن الثاني المسيحي . وقد تحدث عن قيمتها الاديب محمد البشروش في مقاله الطويل : **تاريخ الادب التونسي قبل الاسلام** والذي نشرها بجريدة **الزمان** بتاريخ مارس 1936 على حلقات (3) .

وقد انتجت تونس أثرا قصصيا أقل حجما من **الف ليلة وليلة** ولكنه ذو قيمة لا تنكر وهو : **مائة ليلة وليلة** التي حققها ونشرها القصاص محمود طرشونة (4) مع مقدمة مهمة جدا امتدت على مدى 55 صفحة ، وهذه أول مرة تنشر فيها هذه القصص النابعة من أرضنا ومن مناخنا الحضاري ، تنشر لأول مرة باللغة العربية وكانت قد نشرت من قبل باللغة الفرنسية فقط (5) .

وأرضنا « افريقية » لم تنتج هذين الاثرين العالميين فقط بل قد كانت دائما أرض العطاء وأرض الحصب وبالحصوص في ميدان الفكر .

وفي ميدان القصة ، لا بد لنا أن نتجاوز المقاييس الكلاسيكية الضيقة للمفهوم الحديث الغربي لهذا المصطلح ، ولا بد لنا من عودة الى تراثنا ندرسه ونزيح عنه غبار السنين وننقده النقد الصحيح ، البعيد عن التفاخر وعن التباهي ولكن كذلك بدون مركبات أمام الانتاج القصصي العالمي .

② مخطوطاتنا القصصية :

وبالرجوع الى مخطوطاتنا مثلا ، فاننا نجد الكثير من المخطوطات التي خصصت للقصص والروايات ، ونحن لا نذكر أن جنها مستوحى من **الف**

(2) انظر النص الكامل في طبعة Gallimard ، مجموعة Folio

(3) انظر كتاب : **محمد البشروش : حياته وآثاره** ، لعبد الحميد سلامة ، Apulée : l'Ane d'or ou les métamorphoses. 1975. 309 p.

الدار التونسية للنشر 1978 ، من ص 251 الى ص 285 .

(4) **مائة ليلة وليلة** ، دراسة وتحقيق : محمود طرشونة ، الدار العربية للكتاب 1979 ، 532 صفحة .

(5) Les cent et une niut présentées et traduites par Gaudefroy. Demombynes. Syndbad. 1982.

وقد أعيد نشرها أخيرا بباريس 1982 ، 320 صفحة .

ليلة وليلة أو هو يحاكيها أو هي مجاميع لقصص ونوادر قصيرة ونكت وأخبار بالخصوص ، ولكننا نقول : إن كل هذه الآثار غير مدروسة وغير منقودة ولا مبوبة ولا بد اذن من القيام بكل هذه الاعمال أولا ثم النظر في خصوصياتها الاقليمية وذلك مثلا باستخراج مميزاتها المنبثقة عن البيئة التونسية وربطها بالاحداث التاريخية المحلية ودراسة فنياتها وشخصياتها .

وقد أمكنني حصر عدد من **المخطوطات الخاصة بالقصص والاخبار** وذلك عند قيامي بأبحاث أدبية أو تاريخية وسأكتفي هنا بالإشارة الى بعضها على أمل الرجوع اليها وتقييم محتواها :

- (أ) **حكاية أدبية** : مخطوط عدد 20.100 من ورقة 128 الى 291 (6) .
- (ب) **ورقات في العشق والعاشقين** : عدد 19.459 ، 17 ورقة .
- (ج) **كتاب في أخبار وأشعار العشاق** : عدد 19.634 ، 4 ورقات .
- (د) **كتاب النوادر والحكايات** : عدد 19.638 ، 5 ورقات .

وهناك عشرات المخطوطات غيرها ويكفي للرجوع الى مادة **قصص وحكايات** في الفهارس التي نشرتها دار الكتب الوطنية لتتأكد من وجود هذا التراث الذي يهم كل المهتمين بالآداب وبهم بالخصوص المهتمين بالقصة من مؤلفين وقراء حتى نطلع على آثار من سبقنا وحتى يكون بناؤنا منطلقا من أصول ثابتة عميقة ، لا مجرد اضافات ذيلية لفن غربي بحث ضبط أصوله وفنياته غيرنا من منطلقات غريبة عنا .

③ **حكايات تونسية :**

ومن المخطوطات التي أمكنني الاطلاع عليها بالمكتبة الوطنية ببائيس مخطوطان احتوى كلاهما حكايات عديدة من ضمنها حكايات أبطالها تونسيون أو حكايات تدور أحداثها بتونس .

(أ) **كتاب : متعة النفوس أو ما لا يوجد في كتاب لاحمد التيفاشي القفصى المؤلف للتونسي المشهور صاحب التأليف الموسيقى :**

متعة الاسماع (موجود في نسخة فريدة بمكتبة الطاهر بن عاشور) .

(6) كل هذه المخطوطات موجودة بالمكتبة الوطنية بتونس .

وأزهار الافكار في جواهر الاحجار (مطبوع) والذي يصف فيه 25 نوعا من الاحجار الكريمة وقد ترجم الى بعض اللغات الاوروبية .

وله : **فصل الخطاب في مدارك الخواص الخمس لاولى الالباب** وهو « موسوعة متسعة جدا في مختلف العلوم والتاريخ والادب ... وكان التيفاشي هو السابق في حلبته الى وضع موسوعة ضخمة تتناول بالبحث مظاهر الطبيعة في العالم المعدني الى النباتي الى الحيواني » (7) .

والكتاب الذي يعنينا هو عبارة عن **موسوعة جنسية** تذكرنا بكتاب النفزاوى : **الايضاح في علم النكاح** ولكن كتاب **متعة النفوس** أرقى بكثير لاحتوائه شعرا كثيرا ماجنا لكبار الشعراء العرب وهو أرقى كذلك بخجمه وأبوابه المبوبة علميا ، ثم هو يعطينا صورة دقيقة لمشاغل عصر التيفاشي الجمالية والجنسية فتعرض بالتفصيل للعلاقات الجنسية خارج الزواج ولدور الجوارى والغلمان ودور الحمام في اللقاءات الغرامية وتحدث كذلك عن الشذوذ الجنسي الخ . وقد ترجم الكتاب أخيرا الى اللغة الفرنسية من طرف المترجم السوري الاصل ، المقيم بفرنسا ، روني خيام تحت عنوان : **Les délices des cœurs** (8) .

وما يهمنا الآن من هذا الكتاب هو حكاية سرده أحداثها التيفاشي وقد وقعت في أيامه بمدينة تونس ، وملخصها كيف أن الجماعة من التجار تتحيل على باعة الحيوانات - من الشبان بالخصوص - والقادمين من داخل البلاد للايقاع بهم والاتصال بهم جنسيا بالرغم عنهم . مستعملين في ذلك حيلة شيطانية لا مجال للفرار منها . ويذكر التيفاشي أبواب مدينة تونس الثمانية وأنهجها وأحياءها الخ .

ويمكننا استغلال تلك المعلومات لدراسة التطور العمراني لمدينة تونس ، من العهد الحفصي الى الآن : (من ص 222 الى ص 228 من الترجمة الفرنسية) .
(ب) **مجموع يشتمل على حكايات عظيمة** ، مخطوط بالمكتبة الوطنية بباريس ، عدد 365I ، 225 ورقة .

(7) انظر : **مجلد تاريخ الادب التونسي** ، لحسن حسنى عبد الوهاب ، من ص 205 الى ص 208 ، طبع المنار ، 1968 ، توفي التيفاشي سنة 1253 .

Ahmad Al-Tifâchi : Les Délices des cœurs. Phébus. Paris. 1981. 365 pages.

وقد جاء في صفحته الاولى : « هذا كتاب مجموع يشتمل على حكايات عظيمة بالتمام والكمال والحمد لله » . وجاء على ورقته الثانية : « هذا مجموع يشتمل على حكايات نفيسة ونوادر عظيمة ... » .

وقد اشتمل المجموع على 14 حكاية (9) وما يهمنا هنا في الحكاية التاسعة (ورقة 146) وقد اشتملت على **كلام علي التونسي** ونحن لا نجد قصة بآتم معنى الكلمة ولكننا نجد خطوطا عريضة فقط لقصة قد تكون متداولة معروفة مما يغني عن التفاصيل وكأنها عناصر لقصة ستكتب فيما بعد ، أو هي مجرد رؤوس أقلام وتلخيص ، والاغلب على الظن أن هذا المجموع كان على ملك أحد الرواة الشعبيين الذين يتكسبون برواياتهم للاخبار والقصص في الاماكن العامة ، فيكتفى أغلب الاحيان بتدوين أهم الاحداث تاركا لنفسه حرية ملء الفراغ بجزئيات الامور وذلك حسب الظرف وحسب نوع المستمعين واستعدادهم النفسي وحسب استعدادة هو ، فيلعب الخيال دوره وتكون القصة عنصرا حيا بآتم معنى الكلمة ، تأخذ أشكالا ومنعرجات مختلفة من يوم لآخر ومن راو لآخر . وها نحن نورد **حديث علي التونسي** كما ورد بهذا المخطوط لعله يكون منطلقا لبحوث في هذا الاتجاه ، تفيدنا وترجع الامور لنصابها ، ضمن ماثورات حضارتنا العربية الاسلامية حتى تكون نظرتنا للامور أصوب وحتى تكون منطلقاتنا أثبت : « وهذا كلام علي التونسي ومجيئه من الغرب الى مصر لابن الحوجا نور الدين سيدى علاي الدين وتمنيته عليه من المال وطلوع

- (9) I - حكاية لطيفة عن الاولين ، وهي قصة نور الدين وأنيس الجليس .
- 2 - قصة الورد في الاكمام وأنس الوجود . 3 - حكاية مدينة النحاس .
- 4 - سر لطيف يشناق سماعه كل ظريف وهو حديث السمك الغناز والماء القفاز . 5 - حكاية مانوسة ظريفة وهو كلام علي بن الحراني .
- 6 - سر عن المتقدمين (عن الملك الناصر قلدون) وهو حديث علي زبيق الخود . 10 - تاريخ علي بن الحسنى كلام مراكز . II - **كلام علي التونسي** . 12 - كلام الخليفة . 13 - حكاية الصياد والقمقم والمارد والملك وابن الملك محمود وبنت عمه الساحرة . 14 - حكاية علي شاه وجاريته زمردة الستورية . 15 - قصة فضلون العابد وما اتفق له مع الامراء : بنانة وجاريتها سعيدة وعبدها ونجان ومع سلمان الفارسي وحكومة الامام علي بن أبي طالب . 16 - حديث الكسلان وزوجته . الخ .

الشاطر للقلعة ونزوله على مبيت الملك ونظره الى الشخص الذى مسك الست قمرية وتبنيج الشخص والقبض عليه ، وسؤالها له فيما جاء يطلبه ، فاحكى له عن ما جاء فيه من جهة المال وأخذ الجراب الذى كان معه وأمله له مال وأخذ المال والشخص الذى مسكه فى القصر وقتله اليه تحت القلعة بعد نزوله من مبيت السلطان ، ومجى الازعر لبيت الخواجا واعطا الجراب لسيدى علاي الدين واجتماع الازعر وأبو الولد وقول الخواجا له بعد اليمين : لا تخوننى فى ولدى . فقال الازعر : « يا خواجا ، بقي بيننا عهد الله ، وانما ولدك بقي ولدى ، وأنا ما جئت الا انظر مصر وشطارها وأعود الى بلادى وأجيب ما ديدة وأبين أنا الآخر روحى بين زعر مصر » . ودعه وتوجه الى بلاده واجتماعه بأهله وما ديدة ورجوعه الى مصر بعد ستة أشهر ودخوله لبيت الخواجا ووجود العياط فى بيت الخواجا وسؤاله عن العياط ما سببه ، واحكا الخواجا له عن افتقاد السلطان الى المال ومناديته فى مصر وطلوع عجوز للسلطان واخبارها له عنا وقالت له : « يا مولانا السلطان ، ما أخذ مالك الا جارى الخواجا نور الدين وابنه . وكان كلامها للسلطان أخبار صحيح . فانك لما جئت فى الليل وقلت لابنى لما نالك هذا المال : من أين . قلت له هذا من خزنة السلطان ، فارسل السلطان خلفي ، وأخذنى أنا وولدى ، وانكارى من السلطان وحبس ولدى فى برج الطاهر ، وبكانا هذا على ولدى وهو محبوس ، وقول على :

« ساهل عليا خلاصه » وصبره ليل ورواحه يخلص الولد من القلعة ، ونظره للمفرد منصوب على قاعة السلطان ونزول صاحب المفرد لابن السلطان حسن وقوله له : « ادينى ختمت بك اخذتك ولابقى الا أبوك وطلق الدخنة عليه وبنجهم أجمعين وكتفهم وفيقهم من البنج ، ورجوع الازعر الى بيت الخواجا وبياته تلك الليلة وقوله للخواجا : روح للوالى واخبره عنى ان ما أخذ المال الا أنا وقبض الوالى عليه وطلوعه قدام السلطان وأمر السلطان أن يرمى عنقه فى الحضرة ورمى المنديل من القصر ، وطلوع السلطان ينظر من رما المنديل من القصر ، فاحكت قمرية لابوها على ما وقع لها معه سابقا وهى الذى أعطته المال وتحليفها بأنها ما تتكلم الا وأنا فى نطعة الدم ، وطلوع السلطان من الحريم واسياب الازعر واخلع القفطان عليه ونعمة السلطان عليه بالمرتبة وقلة رضاه خوفا من الزعر ، واعتزازه للسلطان بان ليس له هذا المقام بين الزعر حتى تظهر لى قضينا له ، وقول السلطان له : « يا علي

أولادى عدموا ولم أعرف أين راحوا ولا بان لهم ، وقضيته أحوال تجار مصر «
وقول الازعر للسلطان : « يا مولانا السلطان : الذعر عجزت عن اظهار ما
وقع واجابة الذعر عن العجز وقولهم عجزنا . فقال الازعر للسلطان : « يا
مولانا السلطان ، الذى يظهر هذا الامر يستحق الجلوس بينهم » . فقالوا :
نعم . فقال الازعر : « ارسم بمن يروح معى وأنا أظهر الغر بهم » فركب
قاضى الديوان ورواحه ورجوعه بالغر ما وأولاد السلطان والمال وسؤال
السلطان للعجما وسبب مجيئهم الى مصر وقولهم : « جئنا من عند قاران ،
ملك العجم » وقتل الغرما واعطاء المال لاصحابه واقامة علي بين الذعر فى
الميمنة وبناء القاعة فى الدرب الاحمر « (IO) .

« تمت بحمد الله وعونه ورضى الله تعالى عن كل الصحابة أجمعين »
وهكذا ، فهذه وثيقة مهمة بطلها تونسى ، تجرى أحداثها بمصر تعطينا
فكرة عن عمل رواة القصص الشعبية فى العصور الخوالى ، فهذه الوثيقة ، هى
ورقة عمل الراوى ، تمكنه من اتباع الخيط العام للقصة مع امكانية التصرف .
وهى مهمة ، تعطينا من ناحية أخرى بعض الاضواء على دور الشطار
والسراق ، واستعانة كبار الدولة والسلطان بهم فى مهمات أمنية
واستعلامية ، وفيها تلميحات الى علاقات العرب بالعجم فى عصر الفتن
والقلاقل .

وكان الراوى بابر از الشاطر فى دور منقذ السلطان يعلى من قيمة ابن
الشعب ويرفع معنوياته أو هو يعرى الملك وأصحابه ويظهرهم على حقيقتهم
بدون طلاء ولا دعاية ، فيخلق نوعا من الوعى ونوعا من الحصانة لدى
الرأى العام .

تلك هى ملاحظات عابرة ، ولنا ان شاء الله عودة للموضوع .

جلول عزونه

(IO) ورقة : 174 « وجعله رأس الذعر بمصر » الزعر : اللصوص ؟
الشاطر ؟ وهم من الصقالبة ومن الاعاجم ؟ أم هم الحرس الخاص - من
ذعر - ليزعر بهم العامة ويخيفهم ؟!

ملاحظة : إن صاحب المخطوط يستعمل دائما الصيغ التالية : قال الراوى .
قال الناقل . قال صاحب الحديث ...

قصة قصرة للكاتب اليرمني :
ستيان الاجاجيان
تعريب : ابو بكر العيادى

الاصوات

ظهر « موشج » فى المصنع منذ مدة قصيرة ، كان غريب التصرف ، دائم الصمت ، منطويا ، كان يقارب الخمسين عاما ، عمر محترم ، كان قدوم رجل اشتعل ناظره شيبا قد ولد فى العمال انطباعا سيئا بادى الامر . أنكروا عليه جدية وجهه الاسمر ، ونظراته التعب ، ومشيته المترددة عندما عبر الورشة مرتين مطاطىء الرأس دافعا كتفيه الى الامام مقوس الظهر . توقف . ازداد انحناء ثم استقام فجأة وهتف :

« هناك ضجيج ! »

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhril.com

اخترقت سبابته الفضاء وهو يشير إلى المثقب .
وانفجر الضحك ساعتئذ راعدا مقهقهها ، فاصيب أحد العمال بنوبة سعال واغرورقت عينا آخر بالدموع .

منذ الصباح الى المساء والورشة تثرز ، تقرقع ، تصمم الآذان فترتجف الارضية والجدران وتمتلئ الآذان بدوى لا ينقطع وها الرجل يأتى ليصرخ :

« هناك ضجيج ! »

« ها ها ها ها ! »

تنطلق الضحكات من كل جهة : من تحت البكرات ، من خلف الآلات ، من كل الزوايا ، حتى من المصباح الكبير المعلق بالسقف .

« ها ها ها ها ! »

وفجأة ، كان صفعة مدوية أسكتت كل شىء حولها ، كان مصدر الصفعة المثقب الذى أصدر صليلا ثم أرسل وميضاً وصمت . وقع الحراط على الارض فاندفع « موشج » نحوه وساعده على النهوض وبرطم مؤاخذا :

– ألم أقل : إن هناك ضجيجا !

يفرق الرأى العام الناس كما يفرق النهر عدويته . اذا كنت غير محبوب ظلمت وحيدا على العدو الحالية ، وإن كنت محبوبا فأنت على ضفة التشريف والحب والاحترام يجب مد جسر بين الضفة والاخرى .

هذا الجسر ، مده « موشج » بعد شهر رغم بقائه غريب التصرف منظويا على نفسه .

... كان الخراط « أرشاك » منكبا على آلهه حين أمسكه « موشج » من كتفيه وأبعده عن المخرطة .

– هناك ضجيج !

تم تفكيك الآلة فبدا تصدع كبير فى الصفيحة . إلهى !! كيف استطاع « موشج » أن يلتقط ضجة غريبة وسط هذا الصخب ؟ فكل شىء هنا يقع ويثرز ... لا شك أن هذا الرجل يعرف جيدا كل برغى ويفهم لغة كل المحركات . قد يكون هذا الضجيج بالنسبة اليه كعزف أركستري وهو يلتقط كقائد الاركسترا أى نشاز . ومع هذا فالرجل حزين منظو كأنما السعادة جانبته .

<http://Archivebeta.Sakhrit.com>

وفى المقابل يا للأذن ! يا للسمع !

حين يصل الى المعمل ، يغير لباسه ، كان وجهه يعبر عن انشغال عميق رغم أن أجفانه تخفى نظرات فاترة . لا . لم يكن يعزف عن الاختلاط . وكان صوته رفيقا دائما ، كان يدير ظهره ويتمركز أمام مخرطته . كان العمال يحيونه ويواصلون طريقهم . فيرد تحياتهم دون أن يلتفت . ولكنه كان يناديههم بأسمائهم . كان يعرفهم جميعا من أصواتهم .

مر عام .

و « موشج » هو « موشج » لم يتغير . يلتقط كالعادة مختلف الضججات ، فى الفضاء ، فى دوى مياه « رزدان » فى عويل الرياح وفى خشخشة الاوراق .

... ماتت « إنسا » وحملت معها صوتها العذب والمخمل ، عاشا معا خمسة وعشرين عاما فى وئام . حين يحس « موشج » بالتعب ترغمه زوجته على

الاستراحة ، حين يضيق صدره تواسيه . كانت تحضنه بدفئها أيام المرض والضيق بكل أنواعه .

مرت شهور وهذا الصوت يتسرب فى عيني « موشج » كشعاع الشمس ويتسلل بتمامه داخل جسمه ويصبح جزءا منه . كان « موشج » يسمع هذا الصوت حيثما كان ، وحين يصمت - ولو للحظة - تنقطع كل صلة له بالحياة فيشعر أنه وحيد ، مهجور فى عالم غريب .

لم ينجبا أطفالا .

النغمات الصبيانية تعوض « موشج » عن الطفل الذى كان يمكن أن ينجبه كانت أحيان تسمع فى هذا الصوت الذى يهدى النفس ، كان « موشج » يكتنف هذا الطفل بسمعه وروحه ، يهدده ويطوى غطاء السرير تحت أطراف فراشه ، يتراى له أحيانا أن الطفل كبر وبامكانه اللعب معه ومسابقته عبر الحقول والحدائق ومداعبته وتعليمه ، كان « موشج » سعيدا بالتحام هذا الصوت مع ذاته .

عندما ماتت « إنسا » - ليلة موتها بالذات - بدا له أن أحدا سلب منه هذا الصوت ، انتزع من دمه وروحه . لقد توارى الصوت ، فهب « موشج » للبحث عنه ، بحث عنه فى قبه الليل وفى انتلاق النجوم . هام فى أعماق الغابات وأرهف السمع لحرير الجدول دون جدوى .

كان الجيران يهمسون :

- كم يحب زوجته !

لقد رأى « موشج » الموت أمامه أكثر من مرة عند أبواب لينينغراد ، لم يفهم الناس أن عمره خمسون عاما وأن « إنسا » حملت كل ما يملك . وأصبح خالى القلب والروح والفكر ، لا فى عروقه دم ولا فى نظراته جذوة . وأنهكه البحث حتى كل نظره واضطربت مشيته .

ماذا بقي لـ « موشج » سوى التقاط الضجيج فى أصوات الطبيعة الظاهرة والباطنة ، وإيجاد ما يقطع انسجام الاصوات التى تغمر وعينا .

كان هو نفسه يعجب حين يرى الرنات تشكل بانصهارها لحنا جماعيا قويا لا ينقصه الا نغم منفرد ، هذا النغم الذى طالما أدته « إنسا » بصوتها العذب .

لذلك هجر « ايار سلاف » ومضى ينشد صوت روحه دون أن يظفر به .
عبر « الاورال » ، اشتغل على ضفاف « الانيساي » مبديا مثابرة مثالية حيثما
حل حتى أن صورته لا تفارق « معلقة الشرف » ثم وصل الى « اريفان »
واستقر بها .

لم يتذمر من حياته : كان له عمل وكان الناس يحترمونه ، كان فى مكانه
تكوين بيت جديد ولكن سعادته تتغذى بذكرى القديم ، رغم أن الاصوات لا
تندم ، بل تواصل ملء الفضاء وتحيط بنا من كل جهة ، حسب المرء أن
يبحث كى يجد .

وكان « موشج » يبحث ، لم تكن الاصوات الليفة هى التى تضايقه فى
بحثه وانما تلك الاصوات الغريبة . لذلك كان يهتف :

— هناك ضجيج !

عندما حل الربيع تزوج « ارشاك » فاستدعى الى حفل الزفاف « موشج » .
فحضر وجلس بين المدعوين وشرب قليلا . لاحظ الجميع أنه مرتاح ، لم يكن
فى عينيه ذلك الفتور . ثم هنا بحرارة الزوجين الشابين .

<http://Archivebeta.Sakhrit.com>

ذات يوم سأل « ارشاك » بحدو :

— كنت تحبها كثيرا ؟

لم يجب . اكتفى بتحويل نظره .

وسافر « موشج » لقضاء إجازة كان الجميع يعلمون أنه ذهب حيث عاش
مع « إنا » ولما عاد لم يلاحظ على تصرفه أى تغيير . كان العمال يعاملونه
بكيفية غريبة . كانوا يريدون أن يصبح « موشج » — وهو فى الخمسين —
صديقهم

كان « موشج » يسير ذات يوم صحبة « أرشاك » على الرصيف المبلل
بالمطر . وكان « أرشاك » يحدثه عن عمله ، عن أسرته ، عن حياته اليومية .
كان الطقس رماديا ، نديا وهادئا . كان « موشج » يتقدم مضطرب المشية ،
رافعا كتفيه الهزيلتين الى الامام حافى الظهر . كان وجهه وديعا وكذلك
عيناه . كان الاثنان مرهقين .

أراد « أرشاك » أن يستمع الى « موشج » الذى كان يسير صامتا كصنم متحرك . ماذا يشغل فكره ؟

— لماذا يحب الرجال النساء ؟

ارتجفت كتفا « موشج » ذات العظام الناتئة وقوم ظهره . وحملته أفكاره الى ماضيه . كان فى « منسك » رجل يدعى « أفيم » يحب عرجاء صغيرة اسمها « لينوتشكا » لا يعيرها أحد اهتماما . كان يشفق عليها . ثم أدرك أنه يحبها فتزوجها . كانت « لينوتشكا » طيبة ، طيبة جدا . وكان « أفيم » يحبها . هل أحبها بدافع الشفقة ؟ لماذا أحبها ؟ نعم ، الحب يمكن أن يتولد عن الشفقة . يبدأ المرء بالاشفاق فيتحول فيما بعد الى حب . إن ذلك فى طبيعة البشر ... الرجال أناس غريبو الاطوار . « سر كيس » كان يحب عينى « مانوشاك » . اذا أحبها فمن أجل عينيها . لولا هاتان العينان ... لولا ابتسام زوجة « ميناس » ... « موشج » كانت له رفيقة دراسة ذات شفة عليا غليظة . هذه الشفة ذهبت بلبه ... جزئية ، علامة فى الوجه يمكن أن تستحوذ على قلب رجل ... بطبيعة الحال السحايا كذلك لها وزنها . فزوجة « اليوشا » لم تكن جميلة ولكنها كانت لطيفة ومعتنية ومرحة . « موشج » نفسه كيف أغواه صوت « إنا » ؟

« نعم ، قلب الرجل شئ عجيب .. » .

لم يتفطن « موشج » بأنه لم ينبس بكلمة وأن « أرشاك » ظل يتحدث مع نفسه .

نزل المطر غزيرا فلاذا بشرفة عمارة . عبر شاب الشارع جريا معرضا بدلتة الانيقة للبلل ظل « موشج » صامتا كأنما كان المطر يتسرب الى روحه . صوت المطر والقطرات التى ترتطم بالرصيف يملا رأسه وقلبه . فرغت رأسه . هجرتها كل الاصوات وبسط فيها الصمت سلطانه . لم يكن لدهما ما يقولان . كانا ينتظران انقطاع المطر بفارغ الصبر .

صر الباب وظهر وجه امرأة باهت . ابتسم الطفل المبلل .

– أنا هنا يا أمي .

– هيا ادخل يا ولدى . ادخل بسرعة سيؤذيك البرد .

ارتجف « موشج » وتوتر كأنما الأرض انزلقت تحت قدميه . اتسعت عيناه واحتقن وجهه . إلهي !! يا للصوت ! صوت « إنا » ، صوت « إنا » ، العزيز الذى تتغلغل موسيقاه فى أعماق الروح ، مداعبة السمع كلحن شجي . همس « موشج » « إنا ، إنا » ، والتفت الى المرأة .

لم تكن « إنا » . إنها « أرمينية » ذات عينين فى سواد الليل . أمسكت ابنها من يده وأدخلته المنزل . لاحظ « أرشاك » التحول الذى طرأ على وجه « موشج » ماذا حدث ؟ لم يره قط فى مثل هذه السعادة ولا أخفت جفوته مثل هاتين العينين المشرقتين . عدل « موشج » هيئته ومشيته وتقدم نحو الباب واثقا .

ARCHIVE

– الى أين ؟

ولكن « موشج » توارى خلف الباب الذى مرت منه الأم وولدها . انتظر « أرشاك » طويلا ولكن « موشج » لم يعد . كف المطر عن النزول . غادر عون المرور مرقبه وعاد الى مركزه عند مفترق الطرق . كان الطريق مغمورا بالماء وكان المارة يتفادون البرك بحذر . ولم تبق القطرات تنزل الا من الاشجار . و « أرشاك » ما زال ينتظر .

أضيئت الانوار ووقعت على الاسفلت المبلل فالتمع . ومرت فتيات تحت هذه الاضواء يطقطن أحذيتهن ، كانت أضواء التقاطع الحمراء والخضراء والبرتقالية تترك على البرك أذيالا متنوعة الالوان . ولكن الماء لا يحملها . أسرع المارة الذين احتموا بالمغازات بالخروج وتدافعوا وهم يقصدون وجهات مختلفة ، ربما كانوا يسرعون للعودة الى ديارهم .

و « أرشاك » ينتظر حائرا ، قلقا متسائلا عن المكان الذى ذهب اليه رفيقه « موشج » ما هذا التغيير الذى طرأ عليه فجأة ! كان كأنما وجد سعادته ...

هل كان ما رآه فى العتمة وهما ؟ لا لم يكن ذلك وهما . لقد تهللت أسارير وجه « موشج » واستقام جدعه المقوس عادة .

سثم « أرشاك » الانتظار ، و « موشج » لم يعد .

ومن الغد ظهر « موشج » فى الورشة وقد تحول تماما : كانت ثيابه أنيقة، وحركاته نشيطة ونظراته متقدمة . كان يضحك ويمرح . وبعد شهر التقى « أرشاك » قرب مدخل تلك العمارة .

— ماذا تفعل هنا ؟

— اكرتيت بيتا فى هذا المنزل . هنا أسكن الآن . ليس ثمة ضجيح . هنا صوتها .

لم يفهم « أرشاك » معنى كلام « موشج » لكنه فهم أنه سعيد .

تعريب : أبو بكر العيادى

<http://Archivebeta.Sakhril.com>

(*) ولد ستيفان الاجاجيان فى حلب (سوريا) عام 1924 واستقر بارمينيا عام 1946 ، تخرج من جامعة اريقان عام 1951 ، ودرس بمعهد الدراسات الادبية العليا بموسكو . يعتبر من أشهر نائرى جمهورية ارمينيا السوفياتية .

بدأ بنشر أعماله منذ عام 1942 ، من مؤلفاته نذكر روايات : « وسط الصحراء » و « السقوف المسطحة » و « غرائس العشب التوت » ، وقصص : « مراكب بلا أشرعة » و « الصخور ترتجف أيضا » .

ويموت معه السؤال ...

أمام مكتب ضابط الشرطة جلس في توتر وقلق نظره لا يكاد يستقر على شيء مما حوله ، يدخل في عمق ودون توقف . في مواجهته جلست زوجته في ذلة وانكسار قد اطرقت برأسها الى الارض متحاشية التقاء نظراتها بنظراته القاسية الجامدة أو بنظرات الضابط القابع خلف مكتبه يقلب النظر في مجموعة من الاوراق أمامه . مرت دقائق قبل ان يرفع الضابط رأسه ويتكلم مقوضا حاجز الصمت الذي يلف المكان متوجها بالخطاب الى نهلة بعد أن شملها بنظرة سريعة من عينيه الغائرتين :

– سيدتي اني اقدر حالتك ولا اجهل مقدار العذاب الذي انت فيه . ولكن ما حدث قد حدث ، لم يكن من وسعك ولا في وسع أحد غيرك دفعه او الحيلولة دون وقوعه وليسأ مامنا في مثل هذه الحالة سوى التسليم بقضاء الله .
<http://Archivebeta.Sakhrif.com>
 صاحت نهلة في انفعال :

– تنزه الله من أن يريد الشر بعباده .

– هذا صحيح . ولكن أرجو ان تحتفظي بهدوئك حتى تساعدنا على معرفة حقيقة ما حدث ليلة أمس .

وتوقف عن الكلام لحظة ريشما اشعل لفافة ثم عاد يقول :

– تكلمي يا سيدة نهلة وحاولي الا تغفلي عن ذكر أي شيء .

قالت من بين دموعها دون أن ترفع رأسها :

– كان الوقت مساء حوالي التاسعة تقريبا ، كنت أركب وفتحي زوجي السيارة في طريق العودة الى البيت اثر زيارة قصيرة قمنا بها الى العاصمة عدنا خلالها والدتي المريضة .

– أنتما لا تقيمان بوسط العاصمة اذن ؟

- لا . اننا نسكن بضاحية منوبة .

- حسنا . وبعد ذلك .

- اثناء الطريق اصببت السيارة بعطب . انحاز بها فتحي ناحية اليمين واوقفها وتناول مصباحا كهربائيا يدويا ونزل ليرى ان كان العطب بسيطا يمكنه اصلاحه . رفع غطاء المحرك وشرع فى البحث عن سبب الخلل ، أما أنا فبقيت داخل السيارة انتظر فى شىء من القلق . وفجأة لمحت على ضوء السيارة ظهور بعض الاشخاص بالمكان واستطعت أن احصيهم كانوا أربعة مضوا يتقدمون باتجاه فتحي وحين بلغوا مكانه انقضوا عليه دفعة واحدة والقوه أرضا ثم اشتركوا فى حمله ناحية الغابة بعد أن اطفأوا أضواء السيارة . وبقيت مكاني أحملق فى الظلام فى ذعر وذ هول . وجاء أحدهم وفتح باب السيارة حيث كنت أجلس وأمرنى بالنزول . وحين لم استجب تقدم منى وأمسكنى بيديه القويتين وعمد الى اخراجى قسرا ، استجمعت كل قوتى وتشبثت بالمقعد لكنه كان أشد منى بأسا واستطاع ، دون عناد كبير اقتلاعى من مكاني وسحبى الى الخارج ، وعندما حاولت أن أصرخ مستنجدة سدد الى ضربة فى مؤخرة رأسى أحسست اثرها كاني على وشك الاغماء ونزع المنديل الذى كنت أعصب به برأسى وكم به فمى . ثم مضى يدفعنى أمامه وأنا أكاد أتهاوى على الارض فى نفس الاتجاه الذى ساروا فيه بزوجى .

وتركن نهلة الى الصمت وتنخرط فى البكاء فى لوعة وحرقة ، ويخرج فتحي علبه لفائفه ويتناول منها واحدة يشعلها ويمضى يدخن فى عصبية ظاهرة ، ويتطلع اليه ضابط الشرطة فى اتفاق ويقول له فى عتاب هادى محذرا :

- هذه هى اللفافة الخامسة التى تقوم باشعالها خلال ربع ساعة .

انك تقتل نفسك يا هذا . فوض امرك الى الله فما كان كان .

صاح فتحي فى ثورة :

- كفى أرجوك !!

ويخيم الصمت مرة أخرى . ويطرق الضابط لحظات ثم يرفع رأسه ويتوجه بالخطاب الى نهلة يستحثها على متابعة رواية فصول الحادثة :

- هل بإمكانك ان تذكرى لنا أوصاف أفراد المجموعة أو أوصاف بعضهم على الأقل ؟

ردت نهلة :

- كان الظلام شديدا . وكنت جد مضطربة فلم استطع تمييز ملامحهم

- هل يمكنك تحديد أعمارهم ؟

- كانوا شبانا مراهقين على ما أعتقد .

- كيف عرفت ذلك ؟

صاح فتحي فى احتياج :

- لا تزيدوا فى عذابنا يا ناس ، يكفيننا ما نحن فيه ، وحاولوا أن تكونوا أكثر رحمة بنا .

قال ضابط الشرطة وقد شعر ببعض الحرج :

- نحن هنا فى خدمة القانون . والواجب يفرض علينا أن نعرف كل شئ

يجب أن يكون ذلك واضحا .

ابتسم فتحي فى سخريه ومرارة وقال :

- لعلك تعنى قانون الغاب الذى أصبح يحدد علاقات الناس بعضهم ببعض

هذه الايام .

قال الضابط محاولا السيطرة على الموقف :

- يبدو أن أعصابك ما زالت متوترة وتحتاج الى مزيد من الراحة ، انى

أقدر حالتك واعذرک .

قال ذلك وترك مجلسه وتقدم من فتحي ووقف فى مواجهته وخاطبه فى لطف

قائلا :

- تعال معى يا سيد فتحي ، تعال .

وسار الى خارج المكتب .

نهض فتحي وسار يتبعه الى مكتب مجاور يشغله أحد الكتبه عرفه الضابط

بفتحي واستأذنه فى أن يبقى لديه بعض الوقت ورجاه أن يهتم به وأن يطلب له

قهوة ريشما يعود اليه .

منذ مساء أمس لم يذق طعاما مكتفيا باحراق لفائف التبغ وشرب كؤوس القهوة الثقيلة المرة . لقد أصبح فريسة للهم والانقباض ، تبدل منه الاحساس والتفكير ، الصداق يكاد يحطم رأسه ، مشاهد الحادثة الملعونة تلح على خياله وتعذبه ، فى اليقظة والمنام حتى لتكاد تذهب برشده ، عشرات الاسئلة الوقحة ترهق فكره دون هوادة الامر الذى جعل الحلم كثيرا ما يشتبه عليه بالحقيقة انه يعيش منذ الامس ساعات كابوسية قاسية .

انتبه على أنات زوجته وصرخاتها المختنقة المكبوتة . ومرت لحظات قبل ان يتبينها ويحدد مكانها وسط الظلام كانت ملقاة على الارض غير بعيد منه تحاول بكل قوتها تخليص نفسها من بين أحضان شخص كان يريد النيل منها . ودفعه بعيدا عنها فى حين وقف رفاقه الثلاثة على قيد خطوات يتابعون ما يجرى وهم يضجون بالضحك ويأغظون بفاحش القول . شعر بالنار تحرق كيانه وخيل اليه انه مقبل على الجنون ونسى حاله وما هو فيه . وعندما حاول التحرك لنجدة زوجته وانقاذها وجد نفسه مشدود الوثاق الى احدى الاشجار مكتم الفم ، وأمام عجزه شعر كان يدا من حديد تمسك بخناقه وأخرى تعصر قلبه الذى كان ينزف ألما وقهرا . ويغتسل جسده عرقا باردا .

وينهض الشخص الاول تاركا مكانه لاحد رفاقه وتخرس المرأة ، وتحيد الارض به بقوة وعنف ، ويزداد الظلام ظلما ، ويعشى منه البصر ويغيب عن وعيه من جديد . يدخل الضابط الشاب الى المكتب ويتقدم من فتحى ويقول له :

— أرجو أن تكون أعصابك قد هدأت . لقد فرغت من سؤال السيدة حرمك ويمكنك الانصراف الآن .

وتدوى كلمة حرمك.. فى أذنيه دويا رهيبا، ان الضابط يسخر منه ولا ريب لكنه يكتم غيظه فى حين يسترسل الضابط قائلا وهو يودعهما :

— دعنا نراك غدا صباحا يا سيد فتحى لسماع افادتك فى الموضوع .

كانت بداية تعرفه على نهلة مع بداية السنة الاولى من التعليم العالى بكلية الآداب حيث كانت زميلته فى قسم اللغة الفرنسية. كان الشبه بينهما واضحا فى كل شئ فى السلوك والطباع والاهواء والرؤى والآمال ويفرد طائر الحب

فى قلبيهما ومع كل يوم يمر كان يزداد شدوا وتغريدا . ويتخرجان فى نفس الدفعة وفى نفس السنة ينتدبان للتدريس بالعاصمة . ثم لا يلبثان أن يتزوجا وبقيا باحدى الضواحي القريبة . كان فتحى بطبعه لا يميل الى العيش داخل العاصمة حيث يكثر الصخب والازدحام ولعل لمولده ونشأته فى ربوع الريف اثرا فى ذلك بعكس نهلة التى هى - تونسسية - المولد والاقامة فانها ترى أن الحياة خارج العاصمة أمر لا يمكن تقبله بسهولة وبساطة . ومرت الحياة بهما هادئة ناعمة زاخرة بالحب والسعادة والرضى لا يكدر صفوها مكر. أثنا بيتهما واشترى سيارة مناسبة وأخيرا اكتتبا فى شقة بالعمارات التى تقوم الشركة العقارية ببنائها لفائدة صغار الموظفين قصد تملكها لهم . وفجأة تهتز الارض من تحتهم وينتبهان من حلمهما اللذيذ فيجدان كل ما شيداه عبر الايام قد انهار وتحول فى لحظات الى ركام . حدث ذلك فى ظلمة الليل ، فى لحظة وحشية مات فيها كل احساس انسانى جميل نبيل . وهكذا تتحول مرابع حياتهما الى صحراء تفر بباب لا يعمرها غير السراب اغتيل فيها الحب وضاعت الآمال وقبرت الاحلام .

لم يكن بإمكان أحد التكهّن بماذا كان سيصير اليه أمرهما فى تلك الليلة لو لم يكتشف رجال الامن أمرهما ويسارعوا بتخليصهما من قبضة مختطفيهما . من حسن حظهما أن كانت سيارة شرطة تمر قريبا من المكان فلاحظ أفرادها وجود سيارتهما فى ذلك المكان المعزول ولفت نظرهم وجود أحد ابوابها مفتوحا وغطاء محركها مرفوعا فارتابوا فى الامر وعند فحصهم لها عثروا بداخلها على حقيبة يد نسائية فزادت شكوكهم وتأكد لديهم بأن شيئا ما قد حدث لاصحابها كانت الارض ندية رخوة نتيجة نزول المطر فى الليلة الماضية ومن ثم استطاعوا ان يتبينوا على أضواء مصابيحهم اليدوية آثار أقدام لعدد من الاشخاص بينهم امرأة فمضوا يتعقبونها حتى داخل الغابة . وحين شاهد أفراد العصابة أضواء المصابيح وتناهبت الى اسماعهم أصوات رجال الامن وهم يقتربون من المكان شيئا فشيئا عمهم الفرع والاضطراب ولاذوا بالفرار لا يلوون على شىء .

انتبه فتحى على همهمة زوجته وصراخها المكبوت .. وأصاخ السمع مليا . انه لغط أصوات غير بعيد .. وأضواء تلي أضواء تتراقص وسط الغابة.. انه لا يحلم ولا يتوهم والجماعة - أين هم ؟ لقد اختفوا لابد أن شيئا ما قد حدث أو هو بصدد الحدوث .

ومضى يحاول فك وثاقه . ولم يمر وقت طويل حتى وصل اليهما رجال الامن .
وهما يغادران المركز طلب من زوجته أن تكتم الامر عن الجميع ، يجب أن
يبقى ما حدث سرا بينهما وبين رجال الامن فلن يجنيا غير الحسرة والندم ان
هما باحا بسرهما لاي كان حتى ولو كان أقرب الناس اليهما .
ومرت الايام بهما ثقيلة كثيبة كالحة .

صار فتحي سريع الغضب والانفعال ، يثور ويفضب لأتفه الاشياء ودون
سبب معلوم أحيانا . كما صار يضيق بوجوده فى البيت ، وينفر من الاختلاط
بالناس ، انهم سبب نكبته وبلواه .

واخفت نهلة آلامها فى صدرها وعملت جاهدة على توفير كل أسباب الراحة
والهدوء لفتحي ولم تحاول فرض نفسها عليه أو مناقشة ما طرأ على علاقتهما من
برود اثر تلك الحادثة الملعونة . لم يعد يقاسمها الفراش أو يلتقى معها حول
مائدة الطعام ، كما أصبح لا يبادلها الحديث الا لاما ، وكم شاهدها ليل وحدتها
الطويل ساهرة تبكى أيامها وشبابها وسعادتها . أى ذنب اقترفته حتى يتنكر
لها وينبذها على تلك الصورة ويعاملها معاملة المرأة الغريبة عنه أو الانسانة
الضالة المتهتكة وهو يعلم جيدا بأن لا حيلة لها فى ما حدث . انها تتعذب مثله
بل وأكثر منه وتشعر بالخزى والمهانة الى درجة أنها صارت تفضل الموت على
الحياة . وهو الآخر معذور ولا شك فقد كانت الصدفة فوق طاقته واحتماله :
انه يتعذب ويحترق فى صمت وسكون ، لم يعد فكره مشغولا بغير الحادثة .
وكثيرا ما لام نفسه على موقفه الجاف القاسى تجاهها قائلا فى سره :

« .. ما ذنبها المسكينة الا يكفيها ما حل بها ؟! »

لقد أصبحت حياتهما معا غير ممكنة بأى حال من الاحوال بعد الذى حدث .
يجب أن يفترقا . لا حل أمامهما غير ذلك . نعم يجب أن يطلقها . ولكن بأى حق
يفعل ذلك ؟

ولا تلبث نهلة أن تصاب بانهايار عصبى . ويقول له الطبيب الذى أحضره
لتشخيص حالتها وهو يودعه :

– يجب مراقبة حالتها باستمرار من قبل طبيب مختص حرصا على حياتها
وحياة الجنين .

ويصرخ فى الطبيب كالمصعوق :

- ماذا تقول يا دكتور ؟

- قلت يجب العناية بها وبجنينها .

- هل هى حامل ؟

- نعم ، الا تعرف ذلك ؟

...

- انها فى شهرها الرابع الآن .

وبسرعة يجرى فى رأسه عملية حسابية بسيطة يتضح له بعدها أن تاريخ بدء حمل نهلة يتزامن وتاريخ وقوع - الحادثة - . جنون أن يذهب به التفكير فى هذا المنحى . لماذا يعذب نفسه لمجرد احتمال ضعيف ؟ من حقه أن يعتقد ما يشاء . حتى ان هو أراد تجاهل هذا الامر فسيظل الاحتمال قائما على الدوام وفى كلتا الحالتين على حد سواء شاء ذلك أم أبى !

ماذا عليه أن يفعل . هذه نهلة مريضة والطبيب يقول : انها حامل وان صحتها تستدعى عناية خاصة وأقل صدمة قد تحدث لها تعرض حياتها وحياة جنينها للخطر . ومن غير المعقول والحال هذه مفاتحتها فى موضوع الطلاق فى الوقت الراهن على الاقل .

يجب ارجاء البت فى هذا الامر الى أن تضع حملها ذلك اسلم .

ومرت الايام طويلة بطيئة ثقيلة كأنها اقتطعت من يوم الحساب . واخيرا تضع نهلة طفلها . كان سرورها به عظيما ، شعرت وهى تلده انها تولد معه من جديد ، سوف يملأ فراغ حياتها ويعوضها عن حب فتحى لها الذى فقدته فى ليلة كئيبة مظلمة كما فقدت العفاف والامن والامل واثر ولادتها تحسنت صحتها وارتفعت روحها المعنوية . وصارت اكثر تمسكا بالحياة بعكس فتحى الذى ظل على جموده واكتئابه وتوتره . ويبدو انه لم يرتج لمقدم الصبى بل لعله كان يرى فى مجيئه تجسيدا لمآساته واستمرارا لها ! ورفض رؤيته خشية أن يرى فيه صورة غير صورته هو . هل هو ولده حقا .. ؟ انه يشك فى ذلك ، بل يكاد يجزم بعكس ذلك . وحتى لو كان ابنه بالفعل ، ولم يكن وليد - اللعنة - فسوف يظل بذكره بها دائما رغم ذلك . ! كان مجرد سماع صوته أو ذكر اسم أمامه يثير أعصابه ويزيد النار المشتعلة فى أعماقه وأورا فهو يذكره بشيء

فظيع رهيب لا يحتمل حتى مجرد التفكير فيه ما فتى، يؤرقه ويعذبه ويحيل حياته الى جحيم لا يطاق .

مسكين فتحي ومسكينة هي نهلة . كم يشفق عليها ويرثي لحالها ويتألم لاجلها . انه لا يقدر أن يفعل لها شيئا غير ذلك رغم معرفته بمدى معاناتها وتمزقها . وكم مرة لاحظ أنها تريد أن تقول له شيئا ما لكنها كانت تفضل فى الاخير الركون الى الصمت حرصا على كرامتها وحفاظا على كبريائها آملة فى الوقت ذاته أن تراه يحاسب نفسه من تلقاء نفسه ويقوم بمراجعة موقفه منها ليكتشف كم أخطأ فى حقها وظلمها دون ذنب اقترفته أو اثم اجترحته ، وان يعود اليها فى النهاية كما كان من قبل زوجا محبا عطوفا وفيا .

ولا يصمد فتحي فى وجه المأساة طويلا هو الآخر ، ويتهاوى وينهار على عتبات الايام كومة من رماد وحطام . وذات يوم يدعى الى الحضور بادارة الامن وحين يذهب الى هناك يقولون له : انهم قبضوا على جماعة الشبان الذين تعرضوا له ولزوجته فى تلك الحادثة المشؤومة ، وانهم اعترفوا بجريمتهم الشنعاء . ويعرضونهم عليه عسى ان يتعرف على أحد منهم ، ويطلبون منه أن يحضر زوجته لنفس الغرض ، انه اجراء روتينى لابد منه . و.. و.. وتنتفض المأساة فى فكره ووجدانه وخياله وتحيا من جديد ، وتمضى تلح عليه بكل قبحها وبشاعتها وصدقها . ويفقد الاحساس بكل ما حوله . وتظلم الدنيا فى عينيه ، ويجىء المساء ، ويقرر البقاء فى البيت على غير عادته منذ عدة شهور . ويطلب من نهلة أن تعدله شايًا فتفعل . وجلس يسامرهما ويتبادل الرأى معها حول بعض الامور والقضايا العامة فى كثير من اللطف والرقه لم تعدهما فيه منذ مدة طويلة الامر الذى جعلها تتفاءل خيرا وترى فيه بداية تحول طيبة ، ويرجوها ان تشاركه شرب الشاي فتقبل اكراما له اذ ليس من عاداتها شرب الشاي ليلا . ويقدم لها كأسا بعد ان يغافلها ويضع فيها قليلا من مادة مخدرة ولا يمر وقت طويل حتى تشعر بثقل فى اطرافها بالنوم يداهمها بغتة فتعتذر لفتحي وتحبيه وتنصرف الى فراشها . متعثرة الخطوات بينما يتجه هو الى غرفة المكتبة . لقد عزم على كتابة - مأساته - وفى ساعة متأخرة يترك قاعة المكتبة حاملا معه مجموعة الاوراق التى حوت قصته . ومر بقاعة الجلوس فصب لنفسه كأسا من الشاي وضع فيه منوما واخذ مقعدا وسار باتجاه غرفة النوم .

فتح الباب فى هدوء ، لم يشعل النور ودخل محاذرا أن يحدث أية حركة . كانت نهلة مستغرقة فى النوم استغراقا تاما . وضع المقعد على الارض وعلى

مائدة الزينة وضع كأس الشاي ومجموعة الاوراق ، ثم سار الى المطبخ فأحضر قارورة غاز وضعها وسط الحجرة وفتح الصنبور الموجود في أعلاها بصورة تسمح بشرب الغاز منه بشكل بطيء . وأوصد باب الغرفة وأوقد نور السهرة وأخذ مكانه على المقعد ، واشعل لفافة ومضى يدخن ويترشف الشاي في أناة وسكون . وتناول مجموعة الاوراق وشرع في قراءة ما خطه عليها ، ومن حين لآخر يلقي نظرة على نهلة التي كانت مستغرقة في النوم وعلى طفلها الراقد في سريره بجوارها ثم يعود لمتابعة القراءة من جديد . ويشعر بالخدر يسرى في جسده وتتراقص الحروف والكلمات وتهتز أمام ناظريه لكنه مع ذلك يصمم على انهاء قراءة بقية القصة ، يضع كلمات قليلة وينتهي كل شيء .. ويواصل القراءة :

« الخلاصة لم استطع تقبل ما حدث رغم كل المحاولات التي بذلتها لاقناع نفسي بالتسليم بالامر الواقع ، وكنت دائما أردد في سرى بأن نهلة مسكينة ، ضحية لا ذنب لها فيما حصل لكنى مع ذلك لم اقدر ان اتصور ان يشاركني فيها شخص غيرى حتى ولو حدث ذلك عن طريق الاغتصاب والعنف . لم استطع ان انسى اخلاق أجيال وقرون ، لقد علمنا أجدادنا أن نحرض على الشرف حرصنا على أرواحنا ، وان لا معنى للحياة ان هي تجردت من الشرف . فمن فقد شرفه عاش ميتا بين الاحياء ، هكذا علمونا . واذا كان اجدادنا في الماضي قد عرفوا الاغتصاب أو مارسوه فانهم بالتأكيد فعلوا ذلك في غير ما له صلة بالعفة والشرف .

كلنا ضحايا ، أنا ونهلة وحتى أولئك الفتيان الذين اشتركوا في صنع هذه المأساة ! فمن هو المسؤول اذن عن هذا الذي حدث والذي سوف يحدث ؟ » .
وتقع مجموعة الاوراق من يده على الارض ويستقر نظره على العنوان الذي يعلو الصفحة الاولى والذي أخذت حروفه الغليظة تضطرب وتكبر شيئا فشيئا حتى ملأت فضاء الغرفة ، ويغمغم في همس كالحالم وهو يهوى الى عالم سحيق بعيد الغور :

- من ...

ويقع على الارض ، وتدق ساعة الحائط على الحجرة المجاورة معلنة انقضاء ساعة وبدء ساعة جديدة في عمر الزمن ، ويموت معه السؤال !..

قابس في 18 مارس 1983

جدلية الشرق والغرب في الرواية العربية المعاصرة

إن موضوع الغرب لا يخلو من أهمية في الرواية العربية المعاصرة ذلك أن جل المعاني التي عالجتها الرواية العربية تطرح بشكل أو بآخر قضية الغرب ، فمعاني المرأة والجنس والمثقف والثورة تخضع لعدة اعتبارات لعل الغرب أهمها . فالروائي العربي المعاصر روائي حديث في ثقافته ومفاهيمه اتصل بالغرب اتصالا مباشرا للدراسة او لاغراض اخرى واتصالا غير مباشر عن طريق الثقافة ذاتها وقد تأكد لنا ان هذه الثقافة هي ثقافة كتب قد تربط الصلة بين الشرق والغرب (I) .

ولطرح جدلية الشرق والغرب كما تتراءى لنا من خلال الادب الروائي العربي سنعتمد على مبدأ الافادة منهجا في تحليلنا ذلك اننا سنقتصر على مجموعة من الروايات ذات الدلالات المفيدة صدرت في عدد من الاقطار العربية منذ الثلث الثاني من هذا القرن الى بداية السبعينيات وللإجابة عن القضية المطروحة لا بد من الوقوف عند بعض مزاكرا الاهتمام الاساسية وهي :

- (I) أين يبدو حضور الغرب في الرواية العربية المعاصرة ؟
- (2) ما هي صورة الغرب كما يرسمها الروائي العربي المعاصر ؟
- (3) ما موقف الروائي من الغرب وكيف نفسر هذا الموقف ؟

1 - حضور الغرب في الرواية العربية المعاصرة :

إذا عدنا الى رواية (عصفور من الشرق) لتوفيق الحكيم (2) وهي أولى الروايات العربية التي طرحت قضية الغرب ، تتجسم أوروبا في عظمة آثارها

- (I) انظر بحثنا « الشخص المثقف في الرواية العربية المعاصرة ابتداء من الستينيات : صور ومواقف » مرقون بكلية الآداب والعلوم الانسانية .
(2) صدرت سنة 1938 .

الفنية والادبية ، فلا ينتبه محسن وهو صورة الروائي ذاته الا الى ابرز اعلام الفن من أدب وموسيقى ورسم من أمثال « هاندل » و « موزار » و « ميكيل آنج » و « رفائيل » ولا يهتم الا بالمفكرين الذين لم يتخذوا من العقل وحده عقيدة وظلوا متعلقين بالقيم الروحية فى التفكير . شأن « باسكال » و « دانتسى » و « قاليله » فنظرة محسن الى الغرب هى اذن نظرة انتقائية تخضع أساسا الى عقيدة الكاتب وموقفه الفكرى .

اما صورة الغرب فى رواية أديب لطف حسين (3) فهى الى الشمول اقرب ، فالغاية الاساسية التى ألحت على بطل الرواية ودفعت به الى الهجرة تتمثل فى طلب العلم . بيد ان الغرب لا يتجسم فقط فى علمه (4) بل فى حياته كلها وان كانت متناقضة (5) وحياة الغرب هى « هذه الفتاة ذات الوجه المشرق والشعر المضىء والحديث الحلو والروح الخفيف » (6) وهى « هذه التماثيل » و « هذه المعاهد » الموجودة هنا وهناك فى مدينة باريس (7) وهى أيضا هذه الحرب التى اندلعت والتى ستجعل الناس « متأثرين بالغرائز أكثر مما يتأثرون بأى شئ آخر ، مهدرين لما عرفوا من قيم الاشياء اهدارا ، مزدرين لما ألفوا من المثل العليا » (8) .

وفى رواية « أنا أحياء » تعى لينا فياض حضور الغرب فى كل الاطر المكانية التى تعيش فيها من البيت الى الجامعة ، ففي البيت تلاحظ الهندسة التى تخصص قاعتين للجلوس احدهما عربية الاثاث والهيئة والثانية اوروبية الشكل والاثاث ايضا . وفى الجامعة يتجسم الغرب فى اللغة التى تغزو

(3) صدرت هذه الرواية سنة 1935 .

(4) ذلك ان « العلم يعبر الينا البحر من أوروبا وهو يسعى الينا فى دورنا ونحن نستطيع ان نلتمسه فيما يلقى من الدروس وفيما يؤلف من الكتب » أديب ، ص 6 ، دار المعارف بمصر 1968 ، ص 82 .

(5) يقول البطل : « واذا حيل بينى وبين هذه الرحلة فقد حيل بينى وبين الحياة واتصلت بى اسباب الموت » نفس المصدر ، ص 81 .

(6) انظر نفس المصدر ، ص 138 .

(7) انظر نفس المصدر ، ص 155 .

(8) انظر نفس المصدر ، ص 160 .

العربي ، فتجعله يؤدي التحية بغير اصواته (9) كما يتجسم ايضا في المؤسسة التي تعمل من اجل نشر السلام المزعوم (I0) وهي في الواقع مؤسسة استعمارية .

وفي رواية « الحى اللاتيني » لسهيل ادريس (II) لئن غادر الراوى وطنه كغيره من الشبان العرب للدراسة فان فرنسا تتجسم اساسا في المرأة . ذلك ان الراوى تعرف على ثلاث نساء هن : ليليان ومارغريت وجانين مونترو . واذا تتبعنا فصول الرواية فافنا ندرك ان الراوى وهو البطل الرئيسى وكذلك بقية الشخصوس ، لم تحركهم في فرنسا كلها الا المرأة فكانهم ما هاجروا الا من أجلها (I2) .

اما في رواية « أصابعنا التي تحترق » للمؤلف نفسه (I3) والتي تعتبر الجزء الاخير في ثلاثية سهيل ادريس فيتجسم الغرب في « الفكر » الذي يبثه في المجتمع العربى ، والثقافة الاجنبية يراها سامى - بطل الرواية - ثقافتين هما : الثقافة الغربية والثقافة الارجوانية ولكل ثقافة في المجتمع اللبناني انصارها ومدافعون عنها .

وفي رواية « موسم الهجرة الى الشمال » (I4) للكاتب السوداني « الطيب صالح » يشد الغرب مصطفى سعيد بعلمه ونسائه . فمنذ كان البطل طفلا ادرك ان الحضارة الغربية تساوى التمكن من الفكر الغربى وعقله ولما انتقل الى انجلترا واستوعب فكر الحضارة الغربية لم يعد في الحياة الجديدة الا المرأة أيضا . وهكذا أصبحت المرأة الانكليزية هي التي تحقق ذات الغرب وعبرها سيتخذ البطل موقفه الحضارى .

(9) انظر « أنا أحيا » ، ص 90 ، دار مجلة « شعر » ، ط 2 ، س 1963 .

(I0) نفس المصدر ، ص 157 .

(II) صدرت هذه الرواية ، س 1954 .

(I2) يقول الراوى : « لقد أتيت الى باريس من أجلها » نفس المصدر ،

ص 26 ، دار الآداب ، بيروت .

(I3) صدرت سنة 1962 .

(I4) صدرت سنة 1965 .

وفى رواية « الفلاح » (I5) لعبد الرحمان الشرقاوى رغم كثافة الاحداث التى تمر بها القرية تظل اروبا حاضرة فى ذهن الراوى المثقف . فتراه يتوسل الى الشيخ طلبه الا يذكره بفرنسا وبباريس وهو يشاهد « كرسى الميه » من طراز لويس الخامس عشر (I6) فقد عاش فى مدينة باريس وهى مدينة المتناقضات الا ان ما لفت انتباهه هو الآثار والمتاحف ولا شىء غير ذلك .

وما فى رواية « الأشجار واغتيال مرزوق » (I7) فالغرب هو العلم منجز الحياة الجدة وهو الرقص والموسيقى والانشراح وكلها مظاهر حياة تجسمها كاترين التى تعرف عليها منصور عبد السلام عندما كان طالبا فى بودابست واعضاء بعثة الآثار الذين عاشهم عندما هاجر الى بلد عربى للعمل .

وفى النهاية يبدو الغرب فى رواية « حبيبتى ميليشيا » للروائى الفلسطينى توفيق فياض (I8) من خلال الصحفية الانكليزية التى جاءت لتتعرف على القضية الفلسطينية .

من خلال هذه النماذج الروائية ندرك ان حضور الغرب فى الرواية العربية المعاصرة هو حضور مادى أساسا . ويتمثل خاصة فى المؤسسات العلمية والفنية أو فى المرأة . بيد اننا نجد ان نلاحظ ان حضور المرأة ليس فى ذاته ذلك ان الروائى العربى لا يرصد قضايا المرأة الغربية ومشاكلها الموضوعية بل يتخذ منها رمزا يدل على حضارتها فهى اذن أداة من أدوات الروائى العربى ، يستعملها ليعبر عن موقفه الفكرى من الغرب . كما نلاحظ أيضا ان حضور الغرب لم يتغير فى نوعيته منذ نهاية الثلاثينات الى منتصف السبعينات وعملية الاكتشاف واحدة بالنسبة للبطل الروائى - فهو يكتشف الغرب اما داخل المجتمع العربى عن طريق اشخاصه ومؤسساته العلمية أو داخل المجتمع الغربى بنفس الطريقة تقريبا .

(I5) صدرت سنة 1968 .

(I6) انظر « الفلاح » مؤسسات بن عبد الله ، سنة 1965 ، ص 71 .

(I7) صدرت سنة 1973 .

(I8) صدرت سنة 1976 .

2 - صورة الغرب فى الرواية العربية المعاصرة :

رغم التشابه الذى نجده فى الرواية العربية المعاصرة فى تشخيصها للغرب فاننا نلاحظ ان صورة الغرب فيها ليست واحدة ، بل هى متنوعة .

ففى رواية « عصفور من الشرق » ينظر توفيق الحكيم الى الغرب من الداخل ثم من الخارج والصورة التى يخرج بها قائمة أساسا على التناقض . فالغرب يقيم حياته على التناقض الذى يبدو فى العلاقات التالية التى يمكن استخراجها من الرواية ذاتها :

أروبا المادة = أروبا عظمة الفن

أروبا حقيقة أنانية = أروبا جميلة رشيقة ذكية

أروبا الرأسمالية = أروبا الاشتراكية

أروبا الاغنياء = أروبا الفقراء

كما يقيم الغرب أيضا مع الشرق علاقة أساسها التناقض وسمات التناقض فى الرواية تبدو فى المعادلات الآتية :

<http://Archivebeta.Sakhril.com>

أ - العلاقة بين محسن وأندرى :

محسن = أندرى

خيالى = واقعى

اخلاقى = لا أخلاقى

مثقّف مثالى = مثقف مهتم بمشاكل العمال

لا منطقى = منطقى

ب - العلاقة بين الغرب والشرق :

الشرق = الغرب

الحلم = الواقع

السماء = الأرض

المسيح = المشعوذ

السيد = العبد

الجهل = العلم

ان الغرب بالنسبة لتوفيق الحكيم هو الغرب الذى يعيش ازمته الداخلية ، فلا النظام الرأسمالى ولا النظام الاشتراكى قادران على حل هذه الازمة وتجاوزها . فالرأسمالية حولت العمال إلى عبودية العصر الحديث (19) والاشتراكية التى « امست بدعة من البدع يتبعها الناس مقلدين » (20) القى صاحبها « قنبلة المادية والبغضاء واللهفة والعجلة بين الناس يوم افهم الناس ان ليس هناك غير « الأرض » يوم اخرج « السماء » من الحساب ، لان علم الاقتصاد الحديث لا يعرف السماء » (21) وهكذا ضاع الغرب « يوم أفاق من هذا الحلم ونزل الى عالم واقعه ، يدب من هضابه المتحجرة ووديانه الجافة كما تدب الحشرات » (22) .

اما صورة الغرب فى رواية « أديب » لطف حسين فهى تختلف عن صورته فى رواية « عصفور من الشرق » فرغم الازمة الحضارية التى مر بها وتبلورت فى اندلاع الحرب الكونية الثانية التى ستؤثر فى قيمه تأثيرا ذا بال فانه يظل لدى طه حسين منتج حضارة خصبة حافلة « بالنفع والامل لا لاهل باريس ولا لاهل فرنسا بل للناس جميعا ومنهم هؤلاء الاعداء الذين يقدمون على باريس ومعهم الموت يريدون ان يصبوه عليها صبا » (23) .

ويلتقى مع طه حسين فى هذه الصورة التى ترسم للغرب مجموعة من الروائيين هم : سهيل ادريس وعبد الرحمان الشرقاوى وعبد الرحمان منيف .

(19) يقول والد اندرى : « نحن عبيد القرن العشرين ومتى كان للعبيد حق الاعتراض أو حق الاقتراح » عصفور من الشرق ، ص 36 .

(20) نفس المصدر ، ص 38 .

(21) نفس المصدر ، ص 82 .

(22) نفس المصدر ، ص 98 .

(23) انظر أديب ، ص 155 .

ففى رواية « الحى اللاتينى » وان كانت صورة الغرب فيها باهتة لا يرى الراوى الا الثقافة الثورية التى كان يروجها وقتئذ الوجوديون فى فرنسا (24) واذا اعتبرنا قيمة المرأة فى الرواية وفسرنا دلالتها تتراءى لنا أوروبا فى صور ثلاث وهى :

1) أوروبا الاستعمارية وتبدو لنا من خلال شخصية ليليان التى انشدت الراوى قصيدة لجاك بريفار على انها من شعر هاشم سرقت نقوده ومضت .

2) أوروبا المستلبة وتبدو من خلال شخصية مارغريت التى لم تعثر على ذاتها من خلال علاقاتها الجنسية (25) .

3) أوروبا المأزومة التى تعيش تناقضاتها الداخلية وتبدو لنا ايضا من خلال شخصية جانين التى خدعها خطيبها واضطهدها أهلها فعاشت مرارة الحياة وقسوتها .

وفى رواية « أصابعنا التى تحترق » للكاتب نفسه يقدم الصورة ذاتها تقريبا فالغرب يعيش صراعا حادا بين ثقافتين متناقضتين هما : الثقافة الغربية والثقافة الارجوانية أى الشيوعية . وفى رواية « الفلاح » يرسم عبد الرحمن الشرقاوى صورة التناقض ذاتها ، فمدينة باريس هى مدينة المتناقضات « مدينة الافاقين والصعاليك والفجريات والمهربين والشحاذين وهى مدينة الثوار الاوائل والمناداة بالحرية والتحرير » (26) .

وفى رواية « الاشجار أو اغتيال مرزوق » عاش منصور عبد السلام فى الغرب عندما كان طالبا واتصل به اتصالا عميقا من خلال احدى بناته ومن خلال معاشته له ادرك وضعية وطنه فكان الغرب موطن العلم والتقدم فى

(24) انظر الحى اللاتينى ، ص 88 .

(25) تقول للاديب بعد فشل العلاقة : « ابتعد عنى كلكم هكذا انتم الرجال .. أنانية قذرة » انظر نفس المصدر ، ص 75 .

(26) انظر الفلاح ، ص 2 - 3 .

حين كان الشرق موطن الجهل والتخلف (27) وما وصل اليه الغرب من رقي حضارى ومله أهله ليس فى الشرق سوى أمنيات عزيزة المنال (28) .

ان هذه الصورة التمجيدية التى تعترف بما للغرب من تفوق حضارى عامة تناقضها صورة أخرى رسمها مجموعة من كتاب الرواية العربية هم : ليلى علبكى والطيب صالح وتوفيق فياض .

فالغرب فى رواية « أنا أحيا » هو الغرب الاستعماري فمن خلال لغته وطريقة حياته ومؤسساته الثقافية والإدارية يغزو المجتمع العربى ويهدد شخصيته وكذلك مصطفى سعيد بطل رواية « موسم الهجرة الى الشمال » ما أباحت له بيئته السودانية ان يرى فى أوروبا الا استعمارا ازرق و « دار حرب » يجوز فيها الغزو والسبى والتدمير ، الا سفاحا وشبقا مفضوحا يبادر بفحولة الذكور ، اما الانسانية فى أوروبا فما رآها الا فى لحظة المأساة حين تتجلى الحقيقة عارية مضرجة بالدماء » (29) ولكن الراوى يرى ان هذه المحاولة غير المتكافئة التى تصر عليها أوروبا على لسان أحد ابنائها فى قوله : « كل هذا يدل على انكم لاتستطيعون الحياة بدوننا ، كنتم تشكون من الاستعمار ولما خرجنا خلقتهم اسطورة الاستعمار المستتر ، يبدو ان وجودنا بشكل واضح أو مستتر ضرورى لكم كالماء والهواء » (30) أو فى قوله أيضا : « تؤمن بخرافات من نوع جديد ، خرافة التصنيع ، خرافة التأميم ، خرافة الوحدة العربية ، خرافة الوحدة الافريقية » (31) هى محاولة ستتغير بحكم الصيرورة التاريخية فالاستعمار سيتحول مع مرور الزمن الى خرافة عظمى ولذلك فهو يدعو الى حرق صورة القداسة والتعظيم التى رسمها الوطن العربى بحكم عصور التفوق الحضارى . فالاروبيون باستثناء فوارق ضئيلة مثل العرب تماما « يتزوجون ويربون أولادهم حسب التقاليد والاصول ولهم اخلاق حسنة

(27) انظر الاشجار ، ص 120 .

(28) انظر الاشجار ، ص 188 .

(29) توفيق بكار - الثابت والمتحول - موسم الهجرة الى الشمال ، دار النشر للجنوب 1979 ، ص 22 .

(30) الموسم ، ص 73 .

(31) الموسم ، ص 73 .

وهم عموما قوم طيبون... فيهم مزارعون وفيهم كل شئ، منهم العامل والطبيب والمزارع والمعلم مثلنا تماما ... بينهم مستضعفون ، بعضهم اعطته الحياة أكثر مما يستحق وبعضهم حرمته الحياة لكن الفروق تضيق وأغلب الضعفاء لم يعودوا ضعفاء » (32) .

اما دهرية المثقفة الفلسطينية فى رواية « حبيبتى ميليشيا » من خلال الصحفية الانكليزية جين ترى الغرب مضللا لم يصل بعد الى معرفة الحقيقة نتيجة تأثير وسائل الدعاية الصهيونية المؤثرة .

هذه اذن صورة الغرب كما تتراءى لنا من خلال بعض النماذج الروائية التى حللناها وهى صورة تمجيدية حيناً ونقدية حيناً آخر وهى لا تخضع الى عامل الزمن ، فصورة الغرب فى الرواية العربية فى النصف الاول من هذا القرن ليست ثورة واحدة وكذلك الشأن بالنسبة للنصف الثانى منه ، فالصورة اذن حسب اعتقادنا مرتبطة اساسا بالمكونات الفكرية والعقائدية التى ينتهى اليها الروائى ذاته . وستبدو هذه الفكرة أوضح عند الحدث عن موقف الرواية من الغرب .

ARCHIVE

3 - موقف الرواية العربية من الغرب :

ان الابطال فى الرواية يعبرون بطريقة او بأخرى عن مواقف الروائيين ، والرواية العربية تقدم لنا ثلاثة مواقف رئيسية تجاه الغرب .

1) موقف رافض :

مما لا شك فيه ان توفيق الحكيم فى روايته « عصفور من الشرق » وعلى لسان بطله محسن ، يدين الحضارة الغربية جملة وتفصيلا ، فهو وان حاول تبرير الرأسمالية اعتقاداً منه انها الواقع المحتم (33) يدين الرأسماليين ادانته للاشتراكية وذلك على لسان ذلك العامل المتصوف الروسى الهارب من

(32) نظر موسم لهجرة الى الشمال ، ص 31 .

(33) يقول محسن : « نعم » لن يذهب الرق من الوجود .. لكل عصر رقه وعبيده « عصفور من الشرق » ، ص 36 .

الاشتراكية (34) بيد ان الحكيم يتجاوز في نقده النظام السياسى والاقتصادى ليهجو انجازات الحضارة الاروبية ويدين انبل ما فيها من انجازات ديمقراطية عظيمة ، بما فى ذلك ديمقراطية التعليم فاصبحت «عادة القراءة» لدى الغربيين فى اعتقاد المؤلف عادة رذيلة كعادة تدخين السجائر (35) وهكذا يصبح الشرق ذاك الفردوس المفقود الذى يجدر البحث عنه والانتماء اليه ، فيظل ايفان الامل الروسى يحن وهو فى اللحظات الاخيرة من حياته الى الشرق معتقدا « ان الدهماء هى الدهماء ولا اصلح لقلبها وعقلها من وسائل الشرق الطبيعية فى التهذيب » (36) .

ان موقف توفيق الحكيم من الغرب واضح فى روايته . فالحقيقة التى اكتشفها محسن بعد تجربته الغربية هى ان « النور يشرق من بلاد الشمس ليغرب فى بلاد الغرب » (37) فالتواصل بين الحضارتين حسب الحكيم مفقود ذلك ان الشرق شرق والغرب غرب « بل ان التناقض الذى يتحكم فى هذه العلاقة يجعل اللقاء مستحيلا .

ان نظرة توفيق الحكيم للغرب تخلو من كل تفكير جدالى ، فهو لا ينظر اليه فى كليته وشموله وجليته بل ان نظره قائمة على التجزئة المقصودة . فهو يعتبر الغرب نقيضا لكنه لا يحلل هذا النقيض فى شموليته باعتبار ان المجتمع الغربى هو حلقات متواصلة انتجت ظروف موضوعية ، فهو لا يرى مثلا ان الصراع الطبقي الذى نجم عن الصناعة الكبرى نتيجة حتمية للنظام الرأسمالى نفسه بل يعتبره من صنع ماركس .

(34) شجاع ملحم العانى - الرواية العربية والحضارة الاروبية - الموسوعة الصغيرة ، ص 31 ، منشورات وزارة الثقافة والفنون 1979 ، العراق ، ص 49 .

(35) انظر عصفور من الشرق - دار الكتاب اللبناني - ط 2 ، سنة 1980 ، ص 171 .

(36) انظر عصفور من الشرق ، ص 173 .

(37) انظر الرواية ، ص 180 .

ولقد رأى بعضهم فى هذه الآراء أنها « ليست مغرقة فى الرجعية والسلفية فحسب بل ويمكن اعتبارها خيانة وتضليلا قوميا » (38) وفى هذا الرأى شىء كثير من الصواب . ذلك ان توفيق الحكيم انطلاقا من نزعتة السلفية لم يدرك حقيقة الغرب ادراكا موضوعيا وبالتالى لم يستطع ان يفهم كذلك العلاقة الموضوعية التى يجب ان تكون بين الشرق والغرب .

اما ليلي بعلبكي فى روايتها « أنا أحيا » فان موقفها من الغرب يتسم بدوره بالرفض لكنه رفض يقرب من التمرد الوجدانى ، فليينا فى عقر دارها تحس بشىء من التمزق بين الشرق والغرب وفى الجامعة تعلن عن رفضها للغة الغرب التى يستعملها الشباب العربى فى حياتهم اليومية وتندد بالشاب الذى واجهها بالتحية (39) وبعد تجربتها فى المؤسسة الثقافية تقدم استقالتها وقد اقتنعت انها مؤسسة ذات غايات خطيرة .

الا ان موقف ليلي بعلبكي خلفياته مغايرة ، ذلك ان المؤلفة ترفض الغرب الاستعمارى الذى يسعى الى طمس الشخصية العربية واستلابها ، ففى هذا الرفض اذن رفض لعلاقة لا متكافئة قائمة على الهيمنة الحضارية .

<http://Archivebeta.Sakhrit.com>

(2) الاستلاب الحضارى :

ان هذا الموقف الراض يقابله فى الرواية العربية موقف آخر يرى فى العلاقة بالغرب مظهرا من مظاهر الاستلاب . وهذا الموقف يتبناه الى حد بعيد طه حسين فى روايته « أديب » وعبد الرحمان الشرقاوى فى « الفلاح » وعبد الرحمان منيف فى « الاشجار أو اغتيال مرزوق » فيكف يبدو لنا هذا الموقف ؟.

فى رواية « أديب » كان الراوى « البطل » مهياً منذ البداية وهو يستعد للسفر الى فرنسا للاستلاب . فقبل السفر قطع كل صلة وجدانية تربطه

(38) الرواية العربية والحضارة الأوروبية شجاع ملحم العاتى ، ص 53 .

(39) انظر « أنا أحيا » ، ص 90 .

بمصر وبالحياة فى مصر وعلى هذا النحو نفهم طلاقه لزوجته رغم حبه لها (40)
 وحالما انتقل الى فرنسا واغرق فى الحياة الاروبية تهيأت له المعادلة التقليدية
 « شرق ، غرب » وهى معادلة قائمة أساسا على التناقض :

الشرق = الغرب

الحمول = الحركة

الموت = الحياة

الجهل = العلم

اللانظام = النظام

اللاغاية = الغاية

ولكنه سرعان ما يعثر على الحل ، فينتصر للغرب ويؤمنه به وينبهر بقيمه
 واخلاقياته ويحس أنه فى الحرب احد طرفى الصراع (41) ولكنه وهو فى
 نشوة الانصهار بدأ يعي التمزق فهو يملك نفسين : « نفسا تأنس الى
 الفرنسيين وتجد اللذة فى عشرتهم واحاديثهم ومشاركتهم فيما يأخذون فيه
 من الجد واللهو ونفسا اخرى متشوقة ابدا ، ملتاعة تحب ان تسمع صوتا
 مصرية صادقا (42) بيد ان هذا التمزق سرعان ما يتحول الى ازمة ، فقد ادرك

(40) يقول فى رسالة لزوجته « لم استطع ان أوثرى على أوروبا فابقى معك ولم
 استطع ان اطمئن الى انى سأكون وفيما اذا عبرت البحر فاحتفظ بما
 بيننا من صلة الزواج » انظر « أديب » ، ص 113 .

(41) يقول البطل : « قد أتعرض للضرر وقد أذوق لذة الجوع وما أرى بذلك
 بأسا فان معى ملايين سيتعرضون لهذا الضرر وسيذوقون هذه اللذة
 وما أحب ان اسعد وهم اشقياء ولا ان اشبع وهم جوعاء » أديب « ،
 ص 158 .

(42) « أديب » ، ص 154 .

انه مهما حاول لن يفلح فى الانصهار فهو يحمل من شرقة بذرة اللانظام واللاغاية ولكنه فى بيئة « لا يصلح فيها الاضطراب ولا تقوى على الحياة فيها نفوسنا الضعيفة المضطربة » فقد ادرك انه لم يحسن « لقاءها » ولم يحسن « احتمال الاثقال فيها » ولم يحسن « الخضوع لما تفرضه من نظام واطراة » (43) وتنتهى الازمة فى نهاية الرواية بمأساة فقد مر البطل بحالة جنون انتهت بموته وهكذا كان البطل كالفراشة التى عشقت النور فأحرقتها النار ، ضحية الغرب المأساوية .

ان الموت أو الانتحار هو النتيجة الحتمية للمستلب . ذاك ما حدث ايضا فى رواية « الاشجار أو اغتيال مرزوق » لقد عاش منصور عبد السلام مستلبا ، فهو يشبه كاترين فى كل شىء ، فى الاكل والرقص والموسيقى ولقد تعود على حياة الغرب واصبح واحدا من اهله (44) كما ذكره مستر ريچى الفرنسى وهو فى بعثة الآثار بكاترين وبالايام الدافئة فى بلاد الثلج عن طريق القيثارة الغربية التى أراد أن يتعلم العزف عليها (45) ولهذا السبب ولغيره من الاسباب يموت منتحرا وكذلك يظل الراوى فى « الفلاح » فى حنينه فلا يخرج منه الا الفلاح ابن الارض الطيبة الذى ما سافر قط وما عبر حدود الوطن (46) .

<http://Archivebeta.Sakhrit.com>

ان الروائيين فى هذه الروايات يشخصون هذا الموقف عبر ابطالهم ، ولئن وقفوا موقف النقد والتشخيص فانهم يشهدون على ظاهرة تصم الشخصية العربية المعاصرة .

(3) الموقف النقدى :

بين الموقفين المتناقضين تجاه الغرب موقف ثالث يسعى الى تصحيح العلاقة بين الشرق والغرب ويتبنى هذا الموقف سهيل ادريس والطيب صالح.

(43) « أدیب » ، ص 169 .

(44) انظر « الاشجار » ، ص 188 .

(45) « الاشجار » ، ص 261 .

(46) انظر « الفلاح » ، ص 4 .

فلئن كانت جانين مونثرو رمزا لاروبا المازومة دورا متعاقبا من الثأر والثأر المضاد وترى لذلك ان يقظة الشرق لا تتم دون أفول الغرب » (47) فان أروبا تظل « معلمة » دون ان تكون « مستلبة » فأدبنا بحاجة الى مثل هذه النزعات الثورية « وما تمناه الراوى » ان يترجم « هذه المسرحية (العادلون) يوما » (48) وتظل جانين نفسها « الصورة التى تبحث عنها » روح الراوى منذ زمن بعيد (49) وقد علمته ان يكون عربيا شريفا (50) وكذلك يقف سامى فى رواية « أصابعنا التى تحترق » موقفا نفعيا من الحضارة الغربية ، فالتعامل هو أساس العلاقة مع الثقافة الغربية مهما كان لونها وعلى قدم المساواة سعيا الى مصلحة الفكر العربى (51) ولكن المنطق النفعى يرفض الاستلاب وتبنى النقد فعندما علم سامى ان المؤسسة التى يعمل فيها تهاجم الثقافة الارجوانية تركها معتقدا ان الثقافة الارجوانية لا تتمتع بحرية الفكر وهذا مأخذ رئيسى.. عليها (52) ولكنه رأى « ان الثقافة الغربية قد تحرم ايضا من حرية الفكر وتتجه اتجاهها يمينا رجعيا » .

وفى « موسم الهجرة الى الشمال » يتكامل موقفا الراوى ومصطفى سعيد ، فهذا الراوى يدعونا الى اخراج « الغرب » من اطار القداسة والتعظيم الذى وضعه فيه الشرق والوطن العربى خاصة بحكم عصور التفوق الحضارى . واذا

(47) جورج طرابيشى « شرق وغرب ، ذكورة وأنوثة » ، ص 110 .

(48) « الحى اللاتينى » ، ص 88 .

(49) « الحى اللاتينى » ، ص 115 .

(50) راجع « الحى اللاتينى » ، ص 252 .

(51) انظر « أصابعنا التى تحترق » ، دار الآداب ، بيروت ، ط 1967 ، ص 157 .

(52) انظر « أصابعنا التى تحترق » ، ص 156 .

كان مصطفى سعيد يرد على العنف الاروبى الذى عاشه بذاكرته التاريخية الطويلة بالعنف فان الراوى يرى ان هذه المعادلة التى لا تزال تصر عليها اوروباً معادلة ستتغير بحكم الصيرورة التاريخية . فالاستعمار سيتحول مع مرور الزمن الى خرافة عظمى وسيتحقق ذلك الحلم الذى عاش من اجله مصطفى سعيد فى لقائه المأسوى مع جين موريس ، فقد عاش لحظة فريدة على حد عبارة استاذنا توفيق بكار « كأنها خارجة عن هذا الزمان ماحية لما قبلها وما بعدها يتطهر فيها الحب من الاخطار الموروثة وسيمر عن الابطال الى قمة الصدق . لقد عظم سعيد فى عين جين لانه وهو يقتلها قد استطاع ان يرتفع عن ذلته التاريخية كمستعمر الى مستوى الكرامة الذاتية والعزة الحضارية وكبرت هى فى عينه لانها اذ قبلت منه الموت بذلك السخاء . قد ارتفعت عن كبريائها العرقية الى درجة المرأة العاشقة والانسانية الصافية ، فكان التساوى بينهما لأول مرة والتطابق الذى هو منتهى الحب وما كان ليكون الا بالموت الا فى الموت (53) .

وفى النهاية يبدو موقف توفيق فياض - الروائى الفلسطينى - من خلال روايته « حبيبتى ميليشيا » موقفا انتقائيا ، ففي الغرب الطبيون المضللون والمظلومون . ولذلك فدهرية ايضا لا ترفض بل تسعى الى الدنو من المجتمع الغربى قصد افهامه والاستفادة من موقفه لكسب قضية الحرية (54) .

هكذا يبدو لنا الغرب فى علاقته بالشرق كما يصوره الروائى العربى المعاصر وهذا جدول تلخيصي :

(53) الثابت والمتحول « موسم الهجرة الى الشمال » ، عيون المعاصرة ، دار الجنوب للنشر 1979 ، 21 .

(54) انظر « حبيبتى ميليشيا » ، ص 117 وخاصة العبارة « يا صديقتى الطيبة والمضللة » .

جدول : الغرب وموقف الرواية العربية منه

الرواية	موقف البطل	صورة الغرب	حضور الغرب	البطل
عصفور من الشرق أديب	الرفض الاستلاب	الغرب المتناقض تقدم علمي حياة عصرية	فنونهم وآثارهم علمهم	محسن البطل
أنا أحيا	موقف وجداني متنمر	وجه استعماري المعلم	لغته آثاره مؤسساته نساؤه	ليننا فياض
الحى اللاتيني	موقف نقدي مصلحي	تقدم حضاري	فكره - مؤسساته	الراوي
أصابعنا التي تحترق	موقف نقدي مصلحي	وجه استعماري مباشر وغير مباشر	ثقافته - نساؤه	سامي
موسم الهجرة إلى الشمال	موقف نقدي تحديثي	أوروبا المغربية التفوق الحضاري	آثاره - ثقافته كاترين - ثقافته	الراوي مصطفى سعيد
الفلاح الاشجار ، أو اغتيال مرزوق حببتي ميليشيا	الاحساس بالاستلاب الاحساس بالاستلاب ضرورة تصحيح العلاقة به	أوروبا المضللة	جبن صحافته	منصور عبد السلام دهرية

ان حضور الغرب فى أدبنا العربى الحديث قديم ، بدأ منذ بداية ما يعرف « بالنهضة » ولكن الهام ان نلاحظ أن حضوره لا يزال متواصلا فى الادب العربى المعاصر ، وقد يكون الامر طبيعيا وقد قصرت المسافات وادنت التكنولوجيا ما كان متباعدا ، ومن المفيد أن نلاحظ ان قضية الشرق والغرب فى الرواية العربية ، هى قضية المثقف ولا أحد غيره . فكل الروائيين الذين تعرضنا اليهم يطرحون القضية من خلال شخصية المثقف وهو أقرب الشخصيات الفنية اليهم .

وهكذا يمكن القول ان المثقف العربى لا يزال يتطلع الى الغرب وهو لا يزال يحدد نفسه ويؤكد ذاته انطلاقا من تحديد موقفه منه . فالغرب هو الآخر ولا تحديد للذات الا من خلال تحديد علاقتنا بالآخر فالنتيجة اذن انه من الصعب الحديث عن مثقف لا أوروبى فى الرواية العربية المعاصرة ، ان ثقافة الروائى العربى هى فى الجملة ثقافة عصرية وكذا الشأن بالنسبة للبطل المثقف فى الرواية ، ولذلك فهما عبر هذه الثقافة يمدان يديهما الى الغرب واذا كانت الرواية العربية بدأت رافضة للغرب مع توفيق الحكيم بالخصوص فانها فى النصف الثانى من هذا القرن لا تفتأ توجه اليه النقد داعية الى ضرورة تصحيح العلاقة به ، فتكون اللهجة تمردا حينما يكاد يصل الى الرفض مع ليلى بعلبكي ونقدا لا يخلو من موضوعية مع سهيل ادريس واطراء ومدحا مع عبد الرحمان الشرقاوى ودعوة صادقة الى تحقيق اللقاء الانسانى والتواصل الحضارى المتكافى، مع الطيب صالح .

اما الصورة فهى من خلال هذه النماذج التى حللناها ليست متناسقة بل هى الى التناقض اقرب ، فالغرب من ناحية رمز للتفوق الحضارى والتقدم ولكنه من ناحية أخرى وجهة المهيمن بل الاستعمارى ايضا . تلك هى اذن معادلة الغرب من الرواية العربية :

تقدم وتفوق = هيمنة واستعمار

واذا كان الواقع الاجتماعى بعيد الاستقلال واثناء الفترة الانتقالية شاهد ظهور بعض المثقفين من البرجوازية « المستوردة » كانت لهم قدرة متواصلة

على التشبه بممثلي البرجوازية المركزية الغربية (55) فإن العالم الروائي بطريقة أو بأخرى يرفض وجود التشبه بالغرب ، فحتى المستلب نراه فى الرواية يمر بحالة أزمة (بطل أديب - ومنصور عبد السلام على سبيل المثال).

ان هذا الخليط من المواقف يؤكد أن السمة المميزة لعلاقة الشرق بالغرب هى التأزم . فالروائي من ناحية يقتبس قضايا ومفاهيمه للحياة التى يصبو اليها كبديل للواقع من الغرب (مفاهيم حرية المرأة وتحرر الحبس ومضمون الثورة (التنمية بالخصوص) ومشكلة المثقف ودوره من القيم هى مفاهيم تجمعها بالغرب أسباب) وهو من ناحية لاخرى لا يقبل أن يكون الغرب قيمة متكاملة ، فيقع فى شبه التقائية توقعه بدورها فى حالة مأساوية ان الروائي العربى وهو صورة للمثقف فى المجتمع العربى هو هذا النمط الليبرالى من المثقفين وقد خائنته الظروف ، وهو الوحيد الذى يعيش فى الجدل بين أوروبا والعالم خارج نطاق أوروبا حالة قريبة من المأساة وسبب ذلك هو عدم الملاءمة الأساسية للنظام الليبرالى مع مجتمع لم يولده ... (56) .

ان الرواية العربية فى طرحها لجدلية الشرق والغرب تدعو من ناحية الى ولوج باب .. العالمية . عن طريق الثقافة الحديثة معتقدة أنها السبيل الوحيد الذى يمكن ان يوصل الى هذا « التجمع الانسانى الكبير » ومن ناحية اخرى تدعو العرب الى تحقيق الذات واثبات الجنسية ولكنها بذلك توقعه فى مقابلة مع الغرب ذلك ان العربى المثقف خاصة يعتقد أنه لا يكون « هو » الا اذا تقابل مع الغرب .

وهكذا يجد نفسه فى اشكالية يعسر عليه الخروج منها ، فالغرب يقابل الوضع الراهن الذى يجب تغييره (الغرب = الوضع الراهن) والذات التى

(55) راجع فراترفانون Les damnés de la terre ماسبيرو 1968 ، ص 118 .

(56) عبد الله العروى « أزمة المثقفين العرب » ، ص 118 .

يجب تحقيقها بدورها تناقض أروبا (الذات = الغرب) فالنتيجة إذن هي أن المثقف العربى من خلال الرواية العربية يجد نفسه لكى يحدد ذاته يحمل جنسيتين أو تعريفتين فهو العربى والفرنسى (57) والعربى والانغليزى (58) فهو الشمس والمدفئة وهو مصطفى كمال ولويس الخامس عشر (59) .

وستظل الازمة قائمة ما لم يجد المثقف وبالتالى الروائى حلا نهائيا لهذه الاشكالية .

محمد البادري



-
- (57) شخصية منصور عبد السلام فى رواية « الاشجار أو اغتيال مرزوق » .
 (58) شخصية مصطفى سعيد فى رواية « موسم الهجرة الى الشمال » .
 (59) انظر « الفلاح » لعبد الرحمان الشرقاوى .

هواجس عيد ميلاد

ليل مظلم بهيم ، قمر فى الثالث من عمره يرسل ضوءا باهتا ، فاترا على طريق مقفر طويل وأنا أسير ، أنظر الى الافق البعيد حيث تلتقى السماء السوداء بالطريق ويمضيان فى عناق طويل مخجل رهيب . لقد نسي الليل أن القمر وان كان صغيرا فهو يرقبه ونسي الطريق أنه ألغنه نسي أنى أسير لكى أقتله .

ومضيت . مضيت وقد نسيت لماذا أتيت . نسيت من أين يبدأ الطريق . إنى لا أذكر شيئا فقد أجابنى النسيان ، وبقيت فى بحر الاحلام أنسج من خيوط الظلام سنفونية تعزفها آهات قلبى المجرع وفضالة ذاكرتى المفقودة وأحزان روحى المحبوسة . رقصت عليها كل الشياطين الساكنة فى ذلك الطريق المقفر الطويل وأنا أسير أنظر الى الافق حيث تلتقى السماء بالطريق.

ومضيت . مضيت وقد نسيت لماذا أتيت . وسرت وحيدا ، أتأمل المنازل الشاحبة على أجد فى فضالة ذاكرتى المفقودة من يتعرف على المكان .

كنت أنظر الى الدكاكين المصطفة على جانبى الطريق وأنا فى سبرى البطىء يخيلى الى أنها تضحك منى . تتساءل من القادم الغريب ؟..

ليتها تحلم أنى أحتفل لأول مرة بعيد ميلادى . ولا أعرف كيف يكون الاحتفال بعيد الميلاد .

... ووصلت أمام مقهى ليل تنبعث من داخله أنوار ساطعة جلابة جذبتنى . نسيت أنى لا أملك غير دينار واحد هدية أمى فى عيد ميلادى . قالت لى : خذ يا ولدى واشتر ما تريد . افرح يا ولدى فالיום يوم عيد .

وقادتني قدماى الى داخل الملهى فاذا بالناس منشغلون عنى . منغمسون فى الضحك والشرب والحديث واللعب ليتهم يعلمون أن اليوم يوم عيد ميلادى ، وأن الطريق طويل مظلم ، وأن السماء سوداء ...

ليتهم يعلمون أن أمى قد أعطتلى دينارا . ليتهم يعلمون .. كنت أريد أن أصرخ فيهم وأصيح بكل قوتى : أصمتوا فلا يحق لغيرى الضحك . ولا يحق لغيرى اللهو .

لماذا طلبت ليمنى .. ؟ لا أعرف - ربما لانى سمعت مرارا عم مختار صاحب المقهى الموجود امام بيتنا يقول لحرفائه الليمون بخمسين فرنكا والقهوة بستين.

أمامى ، فى الطاولة المجاورة جلست فتاة وحيدة فى سنى . صدفة غريبة . فتاة وحيدة . وفتى وحيد . لقد قال لى الاستاذ : الانسان مدنى بالطبع يحتاج الى غيره ... فلماذا نجلس مفترقين ونحن فى نفس السن وكلانا يشكو الوحدة ؟

ربما كانت من عائلة غنية فلا تقبل النظر الى أو التحدث الى شخص من عائلة متوسطة ... حقا يبدو عليها الثراء . فتاة جميلة ، شقراء فى السابعة عشرة من عمرها . ثوبها الابيض الطويل قد لف جسمها فبرزت كأنها كليوبترا .

لماذا هى حزينة ؟ أعيد ميلادها الليلة . هل سلمتها أمها دينارا أو قالت لها : افرحى يا صغيرتى فالיום يوم عيد أو هل جاءت على محض الصدفة ؟...

تقدم منى رجل وقال لى : تفضل سيدى ، فدخلت . وأوصلنى الى طاولة فى مكان منعزل . طلب منى ماذا تريد سيدى ، تفضل سيدى .

لاول مرة أنادى بسيدى . الاستاذ فى القسم يقول لى : أنت أيها البخيل . أنت يا من تهمل دروسك . فأنا لا أومن بجدوى المعرفة . فما هو الفرق بين أن يموت الانسان جاهلا أو عالما . ما هو الفرق بين حياة كليهما . العالم يتألم ويفتش ويسهر الليالى وينغص حياته . ويعيش تعباً قلق البال . أما الجاهل فهو يعيش مرتاح البال . لا يشغله شاغل ولا تنغص عيشه معادلات ولا شعارات ولا مثل ، انى أريد أن أبقى جاهلا كى أنعم بالحياة .

وفى المنزل يدعوني أبى بابن الكلب ، فأنا لا أطيع أوامره .

– تفضل سيدى ماذا تطلب .

تعمدت السكوت لكى يرددها مرارا .

– ليمون من فضلك ؟..

يا للاوهام .

توهم يا صديقى توهم فلن ينفعك غير الوهم . دواؤك هو الحلم الزائف .
عش فى الخيال مع كليوبتراك ، واشرب كأس الليمون ممزوجة بعصير
الجنون ...

وماذا يفصلنى عن الجنون سوى هذه الكأس . اشرب يا صديقى ولقاؤنا فى
عالم الجنون . اشرب نبیذا بلا نون . واصرخ فى الاحياء وقل لهم : انى
مهموم . قل لهم أيضا : انى محموم . ولا تنس أنك مرجوم .

شربت الليمون . ووضعت على المائدة مائة فرنك . لأول مرة فى حياتى أكون
كريما . ولكن سرعان ما ندمت فكيف أفرط فى نقودى هكذا فالطريق طويل .
والفجر بعيد . مددت يدي لالتقط قطعة النقود . فلم أستطع . خجلت من
نفسى . ولعنتها ألف مرة ثم نهضت وقد صممت أن أكلمها . اقتربت من
مائدتها بخطى رزينة مضطربة وعيناي لا تعرفان قرارا . تسبحان فى شعرها
الاشقر الجميل وقد تاهتا بين خصلاته الناعمة وبريقه اللامع . واقتربت
أكثر فأكثر وتبينت لى عيناها الزرقاوان وقد بدت عليها الحيرة والحزن .
ورأيت مرة أخرى فى تلك العيون الجميلة الطريق الطويل والسماء السوداء .
رأيت مرة أخرى الشياطين تتراقص . وسمعت للمرة الثانية سنفونية
أحلامى ... واقتربت منها وحاولت الكلام . فحدجتى بنظرة لا أقوى على
مقاومتها . فارتبكت واحمر وجهى وهربت مهرولا . خرجت من المقهى ألصق
نفسى ألف مرة . كانت الغربة سانحة لكى أكسر تلك القضبان الحديدية
التي تفصل بينى وبين العالم . وكانت الفتاة مستسلمة جميلة . وكنت
وحيدا يائسا . وكان الطريق والسماء فى عناق طويل مخجل رهيب ...

ولكنى تراجعت . أمام نظراتها الحادة . فأنا لا أقوى أن أنظر فى عينيها .
 لانى مهموم . محموم مرجوم ... وخلف أهدابها توجد ضالتي . ليتنى قاومت
 واقتحمت هذا الجدار وغصت فى بحر النسيان فأحيا رجلا بلا عقل ولا روح .
 أحيا بقلبي سابحا فى جمال الطبيعة . بعيدا عن الحقيقة التى تعذبني . بعيدا
 عن أمي التى تذكرني بنفسى . بعيدا عن نفسى التى تذكرني بوجودي .
 بعيدا عن الحياة فاني أكرهها . أكرهها بكل ما أوتيت من قوة . واني أخاف
 الموت . أخاف المجهول . فأبقى معلقا بين الارض والسماء . بين الموت والحياة .
 بين القلب والعقل . بين الروح والجسد . معلقا لا أدرك نفسى . ولا أدرك
 أن لى ربي .

ركضت وسط الطريق المقفر علي أدرك الافق .

« أنا لا أوازي قطرة فى بحر عينيها » .

ضاعت فرصة العمر وتبخرت الاحلام . « هربت وتركتها » . وتعالى
 صراخى : أيها الافق اني مدركك . وسوف أضرب رأسك بيدى . سوف
 أشكوك الى رأس الغول الاكبر فيحكم عليك بالرجم ...
<http://Archivebeta.Sakhril.com>

انى لم أستسلم .

وسوف أفقأ عيني . « وفى طريق ملؤه الشوك تمضى أحلامي » . وارمى
 بنفسى فى فوهة بركان هائج من النسيان . « فما خلقت الا لأنسى ... » .
 رأس الغول الاكبر ينهش عظامي . وأنا مشغول . لن استفيق الا وقد
 أكلنى الغول الاكبر . لن استفيق الا على صيحات روحى من وراء السجن
 المظلم « انهض انك تموت » . فأنا مجنون القرن العشرين . مجنون الهستيريا
 البشرية . أنا الحكاية التى لم يفهمها الراوى ، ولكنه رغم ذلك يرويها لان
 لسانه يجب أن يتحرك . أنا الاسطورة التى لم يصدقها أى انسان . لم
 تصدقها الا النملة الصغيرة فى عملها الدؤوب .

أنا الاسطورة التى يصدقها الاطفال الصغار لانهم لا ينتمون بعد الى البشر
 فلم يبلغوا سن البداية .

أيها الطفل الصغير . أنا الانسان . انك تجهلنى لا غرابة فى ذلك فانا
 أيضا أجهل نفسى . انى امتداد مزيف لشخصك . انى روح مزيفة . روح
 محبوسة وراء هذه الاكداس من تراب بللتها الحياة بمياهها النجسة . إذا استغثت
 فلا تغثنى واهرب . لان صراخى مزيف . أنا مزيف فى كلامى . مزيف فى
 حبنى . مزيف فى ارادتى . مزيف فى جنسى . مزيف فى طبعى . أنا ..؟
 لا أعرف من أنا . ولكنى موجود . وجدت صدفة . أو قدرا أو عمدا أو لا أدرى
 لماذا . ربما عبثا . ولكنى وجدت . فاقتل نفسك .

انى أنا الانسان الذى سوف يقتل الانسانية . أنا الحائن فى معسكر
 الفاروق .

أنا الملك المخلوع الذى سوف يعود ليعلو عرشه وسوف آخذ معى كل الماء
 الصافى الموجود على الارض أحمله الى كوكب الارواح . كوكب فيه التراب
 ممنوع . والدم ممنوع ...

ثامر كمون

ARCHIVE

<http://Archivebeta.Sakhrit.com>

تعود المزرعة !!..

وقف يتأمل صورته على انعكاس صفحة الماء بالترعة الجميلة . كان الريف فى أبهى وأزهى أيام الربيع ، الخضرة تكسو الطبيعة ، وغناء الطيور المزققة على الاعشاب تزيده خلابة وصفاء ...

أجل . لا أدري كيف يؤثر هذا المنظر على النفس ، خاصة والجمال يعود الى المزارع بعد شتاء ثقيل ، ولكنه مثمر ...

ظل يعلق على ما يشاهده : قد تثمر المزرعة هذا العام بمحاصيل عديدة ، قد يتحول مسكنه الصغير الى قصر من قصور الامراء . وبدأت الآمال تتحول أمامه كالسحب . واندفع نحو **الخضرة الباسقة** .. وبينما هو يتذكر أشياء منسية بالنسبة اليه ، فاجأته القنابل العنقودية ، فوقف باهتا .. مشدوها ، حائرا .. انها تبث ألوانا تتقمص أشكال الجراد الزاحف ، تتقدم نحو أهدافها. كان قرب « الدامور » يتأمل الوسائس الجارفة ، والحقائق التى تقربه من واقعه المر ، أين صفحة الماء بالترعة ، أين صورته الباهتة هناك ، وغناء الطيور على الاعشاب .. فرت الى بعيد ، لم يبق منها على قيد الحياة غير الواجفة فى المغاور ...

تذكرت ليلي أصدقاء المدرسة تحت الخيام فى المعسكر ، كانت تقرأ ببطء حنان والدتها تقص عليها حكاية الترعة الجميلة التى ظلت باهتة دون ابتسامة ... لماذا تنقلب الطبيعة هكذا فى وجه ليلي وأصدقاء المدرسة تحت الخيام ، والاستاذ الذى يتغيب بعض الايام ، وحين يرجع يصارحهم بأنه كان يراجع دروسه فى المغاور ، يضع الخطة للمدرسة والفصول المتنقلة ...

- : قلت لكم يا أولاد قصتنا هنا بجانب الترعة الباهتة قصة غرام مبتور، غاص فى ظلام دامس عبر المنافذ والاوحوال العديدة ، قصتنا اليوم تعيش ترجمة دموية غريبة ، كلها صور باهتة من يوميات بائع الحلويات الذى

يفني ... « قطائف وطنية بفلس » ..! « من يشتري .. رخيصة القطائف الوطنية ... رخيصة يا ناس ، بدى فلوس . كى أعيش ... » .

وتنطق ليلي مستفسرة :

– .. لكن . لماذا تظل هذه القصة بعيدة عن عقول الناس ، عن الدنيا كلها .. ألسنا فى المخاض العسير .. لقد تذكرت والدى الذى رحل من « الجليل » بدون رجعة .. ترى . هل يعرفون أن والدى « يانس شاكور » ذهب يعمل فى التربة حتى أدركته ويلات الدمار فجأة فمات لحينه ...

عاد لصورته يتأملها فى صفحة الماء بالتربة الحزينة ، والابنية الحربة تعانق الوحشة ، أين هى الآمال المشدودة ، جمعنا منها الاطنان حتى باتت هباء منثورا ، هذا بيت أسرته لقد تحول الى اطلال ، اقترب منه قليلا ، أمسك بجدار الباب المتهدم ، عانق لوحة رسم بها ذات يوم مع شباب الحى « سنعود للمزرعة يا حنان ! »

كان البيت متواضعا : ادباش قليلة تحمل على عجل ، سقف من حديد بسيط يعطى بعض الحرمة لأهله ، لكنه يطير لأقل صدى من أصداء الحراب التى زحفت ، تحرق المزرعة والعود الاخضر ، ولاذ فى النهاية بالصمت ، إنه لا يقدر على مواجهة أحلامه ، إنه خلق ليتعثر هنا وهناك ، ليظل بين السياف والسجان ، يرحل فلا يترك خلفه أى أثر من آثار الانسان ، تذكر حصاره الاول والثانى والثالث والى ما شاء له الدهر أن يكون ، لم يرد أن يعلق على كل ذلك ، فعمره معلق بين اليقظة والحلم ، بين الخيال والواقع ... قلبه يتحسرج بمليون غصة ، وظل أمام البيت فاغر الفم ، لاهث الانفاس ... لا أدري كم دام القصف هنا ! إنه بعض دقائق ، فسقف بيتنا من الزنك الحقيق ، يطير كالمتهاتات الثرثرة ... ورأى ما تبقى من المنازل والنزل الفخمة ، فاستيقظ من سباته حتى كاد يجن ، لكنه أصر على أن لا يتحسر على وجوده ، ووجود أقرانه من اللاجئين . فى صبرا وشتيلا ...

– كنت أرى حقيقة ما يحدث . لم أحلم قط ، ولكنها اغراق القصة ، وشكل الهرم الغامض منذ الطفولة ، يمكن ان اظل دائما فى الخدمة العسكرية

لا أخشى القسوة فقد ولدت معها منذ أن وضعتني أمي ، حتى زواجى كان تحت أنغام القنابل والمفرقات .. على كل حال كانت زوجتى هى الأخرى غير قلقة فقد تعود كلانا هذا الموقف ...

بقي يتأمل المنزل المتهدم ، يواجه أحلامه المتبعثرة ، ربما يشتري منزلا بريطانيا ، أو أمريكا ، من النوع الذى يتحرك فى اتجاهات مختلفة ، وربما لا هذا ولا ذاك ، فالهدوء تحت الحيام أفضل .. بل ربما يكون تحت التراب ، لذلك يكون من الأفضل الاقدام على الحياة مثل الموت تماما ، القفز فى المجهول ، فى واقع متمرّد ...

كان استاذ الانجليزية فى المخيم ، فرح بالفرصة الجديدة التى أعطيت له ، فهدات طباعه الاولى التى تطبع بها فى فصائل الثورة ، وفهم أنه يعد الشباب للمستقبل ، للمزرعة الجميلة الباسمة .. كان يحب دروسه هذه المرة ، وأكثر من الماضى ... لم تعد عباراته تخرج بزفرة ألم ، أو حشجة حزن ، وهكذا كان استاذ المدرسة فى « الجليل » .

<http://Archivebeta.Sakhril.com>

– درسنا اليوم يا شباب يتعلق باختلاف النطق وحتى الاستعمالات النحوية بين الأمريكان والانجليز .. ولو أن الموضوع ، موضوع لغة ، لكن هنا بعض الخلفيات التاريخية وتعود الى استعمار انجلترا لأمريكا ... وفى حصة أخرى نحكى القصة من أولها ...

– لكن نحن لم نر هذا الاختلاف فى الواقع بين الانجليز والأمريكان اليوم يا استاذ ...

– اذن . ما دام الامر يعود الى خلفيات تاريخية نرجوكم يا استاذ شرح القصة فنحن فى شوق لقراءة ثانية فى التاريخ ، سيما ونحن نستهدف الى صراع عنيف من نوع الامتيازات الاقطاعية ..

– من خصائص الانجليز ان لهم صبغة خاصة فى تاريخ العالم ، لذلك أرجع بكم يا شباب الى عهود خلت حيث خاضت انجلترا سلسلة من الحروب

الاستعمارية الطويلة ، امتدت فيها الى امريكا أين جسمت العديد من المستعمرات الضخمة ، الى ان احتكرت تصدير العبيد من افريقيا الى تلك البلاد ...

على كل ، فالحديث عن الصراع فى العالم يطول يا شباب .

فكرت ليلى فى الامر ، وبعد ما أجادت الدرس مليا ، طارحت الاستاذ بأنها تعتزم الانضمام الى لجنة المعلمين لتأخذ مكانها فى تعليم أبناء الشهداء أمثال هذه القصة التاريخية . هز الاستاذ كتفيه مقاطعا ...

- : كنت سأبادرك بهذا الاقتراح فأنت وفيه لوالدك ، « يانس شاكور » ، وكما تعرفين ليس لنا خيار فى هذا الواقع فلتأخذى قسطك فى مدرسة أطفال « الجليل » من الآن ..

عادت (حنان) الى الموضوع بجدية ، والمزرعة فى مخيلتها ، تتسرد فى المرور بينها ، لالقاء نظرة على أطلالها التى تبكى تاريخ حياتها ، إنها أثنى شئ فى نظرها ... إن إنقاذ المزرعة يمثل بالنسبة لها أشرف نضال ، فهى مشروعاها الاوحد ، مشروع اخوتها ووالدها الذى راح ... امرأة ليست كالنساء .. واحدة اخرى مستيقظة المشاعر مشحونة بالأم العسر فى أيام « بيروت » العميقة ، لن تهتم بنفسها ، انها عالية الانف فى غير استعلاء ، نائرة مع الآخرين من أجل البقاء فى المزرعة ، هكذا علمها يانس شاكور ...

... من الافضل أن أتذكر ذاتى فى المزرعة ، فى البيت الحقيقى الذى كان يسعدنا الى أبعد حد ، لان فيه الانتظار لقصر من قصور الامراء ، لراحة ، لاطمئنان فى المجهول ... من الافضل أن نموت فى سبيلها من أن نبيعها لهؤلاء المناكيد الاغبياء الذين حلوا بحقائب فارغة يودون ملاها حتى بالقش ، قشنا ، اثوابنا ، وبعقولنا فى النهاية .. تصوروا يا أطفال هذا الاضطبوط الارعن ، تصوروا حجم بطنه ، واتساع حجمه ، وسيلان لعبه حين يرى البساتين هنا وهناك ، بين خضرة وزهر ، بين ماء رقراق ، وأودية ، وأشجار باسقة ، وثمار تنهاوى ، ولا أثر لطفاة منذ الازل ، غير هؤلاء يا أطفال ، تصوروا انهم ينزعوننا ، ويسلبون الارض ثم يكذبون على العالم بأنهم اشتروها من أصحابها ... يا أطفال أعلمكم الدرس ، هذا الدرس الاول حتى لا تنسوه ،

حذار من النسيان ، إنه عدونا ... تذكروا دائما بداية القصة ، وتعنى ماضيها بتفاصيله ، وهرمياته من هنا وهناك ، واللحظات الغامضة فيه ، متهدمة .. لا أعتقد أنكم تتناسون .. هذه حقائق يا أطفال ..

.. اذن . الحرف الاول فى الدرس الاول هو (نزع) (انتزع) أى بصلافة ، أى بشدة .. شدة قد تخيف الجبان ، لكن لا تقلق المؤمن بالمزرعة ، بالارض حيث نعيش على راحتنا الابدية ..

.. وأنت . فيم تفكر ، فى والدك ، فى والدتك .. فى اخوتك ، فى منزلك المنهار ... لا بأس .. تذكر ذلك والى حين ، تذكر هذه البداية يا هذا ، يا طفل البارحة ، يا طفل اليوم ، يا طفل الغد ... تذكر . فالحيط يدور ويدور ، والحلقة تكبر طالما كان هناك دور وتسلسل ، حتى صبرا وشتيلا . لا تخيفنا .. جمعنا من أجل ذلك ، آلاف الجماجم والرؤوس ، جمعناها فى مقبرة واحدة ، هى الحياة .. وأمام هذه المشاهد نولد من جديد يا أطفال ..

... وأنت . لا تود أن تحفظ قصائد فلسطينية من الارض المحتلة ، تفضل ان تبقى دائما ترتدى جلبابك الاسود ، يجب أن تعيش على اللون الزاهى ، إنه يباع فى الاسواق وبائمان متفاوتة ، نعم .. ماذا قلت .. تعنى أنك لا تشتري الشرف .. أجل . لا أرغب أن تكون كذلك .. ولكن لتتغير مع الزمن . ستبقى !

.. وأنت . تود أن تركب السيارة ، لتقول لاصدقائك طالما تترفعون عنى بسيارات آبائكم ، ها أنذا أركب سيارة أمريكية مصفحة ، لادخل بها باب المزرعة المهشم ، ألعن الماضى والحاضر والمستقبل اذا كان على هذا النحو ... ألعن اللحظات الغامضة فى شعورى العربى بالذات ، ألعنفا فى حصار بيروت ، ألعنفا فى فك الحصار ، ألعنفا فى طريقة التزلف نحو المشاة ، نحو الغزاة ... غريزتى عربية يا استاذة غريزتى عربية يا آنسة ، افهمى وتفهمى دورى ، لا يمكن التخلص من واقعى ، مهما كانت الاسباب ..

.. وأنت ترغب أن تتجول فى بلاد العالم المتمدن ، لك ذلك ، اذا كان لديك العملة .. العملة الصعبة ... كيف الحصول على العملة الصعبة .. انها صعبة بحق فى هذه الايام السوداء ، فيبيروت محاصرة . والحمراء تشكو التوجع العربى ، وشعورى غامض ... حقا . أنا غريب الاطوار ، ومن حولى كل

الاطوار كانت كالطوار ، لمدة قصيرة أو طويلة ، لزمنا ما قد ينزف قد ينتهى
على قرع كؤوس النصر أو الهزيمة ، عفوا الفشل ... لا أدري كيف ألم شعث
نفسى ، انى بدوى بدت عنى آمالى ، فتتهت فى الصحراء أنشد ذهبها الاصفر ،
وريجها الصرصر ، ولفحة العسكر ...

.. وأنت ! ماذا تصنع .. تخط بعض الرسوم الملونة ، أى انك تخشى
قسوة نفسك فتداعبها بشىء من الحنان ريثما تتذكر القصة من البداية ..
ارسم اذن ، لوحة الارنب المقطوع من الرأس ، ارسم لوحة القط الميت فى
قارعة الطريق .. والا . ابدأ بلوحة الاعور الذى يستطيع حصد الآلاف من
رؤوس الاطفال - امثالكم - بسهولة .. تصوروا لقد حصد فى دقيقة واحدة
ألف رأس ... انه بطل شجاع ، يستحق نيل جائزة نوبل للسلام !...
ارسم . هذه لوحة تلقى رواجاً فى أسواق الدنيا كلها ... لا عليك .. فلدى
فكرة قارة على أن اللوحة ستنال شهرة عالمية ...

.. وأنت .. على عادتك . تتأمل صورتك على انعكاس صفحة الماء بالترعة
الجميلة ، دائما تشق الريف ، والربيع فى أزهى أيامه ، لكن فى هذه المرة
هناك الرؤوس الطائرة هنا وهناك تكسو الطبيعة ، وغناء الطيور على الاعشاب
اليابسة الشائخة تزيد الجو وحشة وكآبة .. سيان عندك الماء والطين ، الفرح
والآلم ... درسك أنت بالذات أن تحاول طرح حرف (قد) من قاموسك ،
وكذلك (السنين وسوف) ينبغى أن تتعلم ذلك ، وأن تحفظ الصورة عن ظهر
قلب ، وان .. وان .. وان

.. وأنت . لا تبك فاختوك هؤلاء ، انظر ما يزالون أحياء فى المخيم رغم
عمليات الحصد الجماعى ، لا تبك .. اخوتك هنا وهناك .. واسرتك كبيرة ،
كبيرة الى أبعد حد ، كان يجب ان لا تفكر فى ذاتك لانك لا تعيش وحدك فى
زاوية قصيرة ، فى ركن مهجور من البيت المتهدم ، لانك ... لانك ... لانك
من طينة أخرى ، من مدينة أخرى ، من نزعة عربية حقيرة عند هؤلاء ، لانهم
جاؤوا الينا من كل حذب وصوب ، لانهم يعرفون الركوب على المصفحة
الامريكية ، لانهم يعرفون استعمال القنابل الفسفورية .. لانهم ... لانهم ...
لانهم ...

... أنت هنا فى مدرسة من القش ، ومعك الكثير ، لا تجهل دورك يا
طفل ، يا أطفال يا كرام ... هذا المخيم فى الوضع الذى هو عليه ، هذا

الشارع ، هذه الرؤوس الجامدة ، هذه المقبرة الحية فى العقول ، وانتم بين جفاف العواصف العربية ، وسخاء القصف الوحشى ، طيبون أنتم يا أطفال ... لانكم تعرفون معنى الطيبة ، انها فى النفوس ، وحتى نعثر على فندق العواطف الحجولة ، ربما يقع العثور عليه فى القريب العاجل ، أو فى زمن قد لا تدركونه !!

... وانت ! أظنك تفكر كعادتك فى غزل البنات ، فى الحب الضائع الذى أفلسك ، فى سيارة الجفوار التى تعشق ركوبها وأنت تتجول بها فى شوارع المدينة بحثا عن النساء ... لا يا سيد فاتك الشنب ، غاب عنك أننا فى غابة أخرى من الحصاد الآخر .. يمكنك أن تعوض حاجتك اليوم .. فالوقت من خشب يا هذا . والزمن يمر دون رجعة .. ولو أنك من أعيان القوم ، ووجهاء المدينة الذين بكوا معنا فى آخر لحظة ، لعلك تدرى بلا شك أنك تركت قصرك المنيف فى نهاية الامر . أما نحن فقد حشرنا كالجراد ، والحقيقة أن تعبيري لا يعرفك بالحقيقة نفسها يا سيد !!

... لسنا فى مدرسة منظمة ، حكومية ، أو عسكرية ، أو خيرية ، يكفى أن نرفع العلم فوق الترتعة للتعبير عن كياننا كأطفال أمة فلسطينية موجودة الى الأبد ... يكفى أن نغنى نشيد « من أنا » وأغنية « العصفور » يكفى أن نتحرك هنا فى رحاب الحيام المنصوبة ، عبر اللحظات الغامضة والهاربة عن الاطفال الطيبين ... نتحرك بأية طريقة ، بالمنازل المنهارة ، بالارواح المسكونة بالذعر ، المخطوفة بالغدر ، نتحرك لنعلم دروسا كثيرة وبرغبة جامعة .



- متى يبث المسلسل التلفزيونى ؟..
- أعجبك هذا الموسوس ... إنه فى شكل مضغوط .
- إنه ظل الناس فى المخيم .
- الناس هنا يقرؤون ولا يشاهدون ..
- لأنهم فى موسم الحصاد ..
- بل قل ، فى مرحلة انتقال حضارى ..
- إنه على كل حال مسلسل يبث مشاكل الحياة العربية ..

- لكن . ليس بعمق .
- أنا رجل بسيط لا يهمنى ما يهمنىك يا أستاذ ..
- أنت تروم الفرجة وكفى ..
- وبأشياء ومبتكرات جديدة وحسنة ..
- على كل . ما زلنا نتعلق بالالوهام الى حد الآن ..
- أفهم .. إن المسلسل كله أوهام ..
- نحن عرب يخيل إلينا بالبداية أن كل بدلة جميلة انطلاقاً من التسليم بأن كل جديد ناصع ، بينما الواقع خلاف ذلك تماماً ..
- أما بالنسبة للباس ، فأنا من أنصار القديم يا أستاذ ومن الشهرة الأمريكية أيضاً .. والمسلسل يدور حول ذلك ...
- اذن . ما دام الموسوس يبت ذلك ، لماذا لا تغير فكرك مما يدور حول نفسك وحول واقعك الغامض هذا ...
- إنه الهاجس الذى يطغى علينا من همومنا العديدة ، والموضوع يرجع الى محاولة التوقف عن البث حتى الانطلاق بعملية إبداعية ...
- سنرى .. سنرى ..



تابعت (ليلي) التأمل فى الكراس الممزق الذى أمامها على - الطاولة - المهشمة تحت الحيمة ، وشرعت فى وضع الأرقام ، فالحصة مخصصة للحساب ، حيث كان العد العكسى .. خيل إليها أن العملية صعبة الحل ، لم يكن بها (جبر أو هندسة) إنما لعقدتها مع الحساب أصبحت تتحاشى البحث بمفردها عن النتيجة ... وما كاد الأستاذ يعطيها الحل حتى قفزت نحو « السبورة » فى خيلاء ، وهى لاهثة ...

- أجل . لقد وجدته منذ لحظات ...

- وجدت ماذا ؟

- الرقم الفائز بلا شك .

التفت اليها أصدقاء الفصل المشدوهين بركضها ، وهى تلتقط أنفاسها ،
ثم عادت بلا تردد :

- وأخيرا .. ليلعن الجميع هذا الرقم الساحر « 77 » وبنغمة نشاز
متصنعة :

- إنه نسخة من رقم « 7 » ذلك الرقم اللاهث نحو العشرة بصعوبة ، أو
اليوم الذى صنعنا فيه المحفظات حتى لا نترك الكراسيس والكتب مبعثرة ،
فالتلاميذ سيهرعون اليها إثر انتهاء القصف الوحشى النازل على رؤوسنا
فى المخيم ...

.. لكن أحدا لم يسمع ، فالواقعة من سبعة أيام وهى ترج الدنيا بمن
فيها ، وقرأت ليلي فى لهفة بعض الجمل الباقية بالسبورة (يحسن لو ترتدى
نظارات نارية تكشف لك أين نحن الآن)

.. لكن أحدا لم يسمع ... الرفاق فى خندق المواجهة صباح مساء ، والمدد
نادر ، والعناقيد المعنقدة تصب جام غضبها على رؤوسنا ، نحن الاطفال
والبنات والشيوخ ... لا بأس ، هات الكراس والقلم ، ما دام هذا الرقم
يجرى نحو السباق فسنستمر لارقام اخرى ...

لا بأس ، هات الكراس والشعر والمسدس والقصة والقلم ... لم يبق وقت
كثير للمراجعة ، فالدروس محفوظة من زمن ، مضت « ليلي » نحو التربة
وكان الليل قد تجاوز نصفه بقليل ، اعتذرت للاستاذ ، أنها متجهة لدرس
أكيد ومستعجل ، وكانت تتأبط الكتاب وفى لهفة رائعة تذكرت التحقيق
وروعة البلاغة فيه ، وصدى التعذيب ، لم يكن غريبا أن تتلقى الضربات حتى
فى أعماق النفس ، إنها متعودة ، وقد قالت لصحفى أمريكى التقت به صدفة
اثنا الحصار ، تذكر تاريخ تعذيب الانفليز لكم ، فسكن السر فى أعماقه ...
لماذا أنتم هكذا تنكرون علينا نعمة الحرية ، إن الامريكى بالنسبة لنا لغز
محير ، إنها لمعظلة حقا ...

.. الهدوء فى التربة ، ما عدا بعض الحشرات الصاعدة والخافتة ، وفجأة
التقت ليلي بالمهندس الذى شرع فى تخطيط العد العكسى ، وهو يتصفح
كراس ليلي الممزق ، تسلم منها القلم ، وبعض الاوراق المتهرثة ، لا بأس ،
من الروعة أن تشرع فى العمل لقد جاؤوا الينا من كل حذب وصوب ، وهذه

نعمة من الله ... هذا مؤكد .. إنهم فى ارتباك من أمرهم .. سنرى ...
سنرى ...

وأعادت (ليلي) قصتها الاولى مع التربة الجميلة ، والغرام المتقطع ، غاص
فى ظلام الليالى وظلم الاحبة ، ظلام سد المنافذ وغلق الابواب وقال هيت لك...
قصة يوم يعيش على الرعب المتجدد ، والتصفية الموعودة ، تذكرت القصة ،
إنها تعيش ترجمة دموية كلها صور وأشباح ... تذكرت بائع الحلويات وهو
يردد : « قطائف وطنية بفلس واحد » « الوطنية بفلس واحد » من يشتري.
باب الله ... « قطائف رخيصه ... رخيصه يا ناس .. فى زمن القنبلة
العنقودية ، الوطنية بفلس واحد ... » من يشتري الوطنية يا ناس ..
« بدي فلوس حتى أعيش » « أعيش ويموت العالم » !

وتتذكر « ليلي » القصة من أولها ، تذكرت والدها كيف رحل من
(الجليل) بدون رجعة .. ترى هل مات « يانس شاكور » أين أنت ... أكيد
إنه شهيد القصف الاعمى ... كم كنت رائعا تموت من أجلنا ...

... لا بأس ، هات الكراس وسأستمر فى الكتابة ، فى تدوين التاريخ الى
الصباح ، سأدون ما يتردد على اللسان سأذكر كل شئ ولو عن طريق
الصدفة ، إذ يبدو أن العالم بأسره يعيش على الصدفة ، فمن الصدفة أن
نموت نحن الاطفال ليضحك ويطمئن من أراد لنا أن نقبر ، لكن لا يستطيع
تحديد قصوره ، ولا درجة ما يعتلج فى نفسه من خوف ، منا . نحن الرؤوس
المحصورة التى التهمت النيران ... نيرانكم أنتم ، وفى الواقع نحن نقرأ
اللغات الحية ، والقواميس العلمية ، والبحوث الحضارية .. و .. و .. دون أن
نعثر على حظوظكم منها ..

... بيدي هذا الكتاب ، إنه قصة طبعت منها الدار آلاف النسخ ، لقد
نفدت ، ها إنى أشرع فى القراءة ... بطلتها طفلة فلسطينية مثل بحثتها
اسرائيلي برتبة ضابط صف على مرأى ومسمع من أسرتها ، والجيران ،
والشرفات مفتوحة ، والافواه فاترة باردة ، وأولاد العمومة والاخوال والحالات
على مقربة من موطن الحدث ... كانت الطفلة باهتة مما يقع لها ، صاحت أول

الامر صيحة الاستغاثة ثم صمنت ، أو على الاصح ، ارتفع بصرها الى أعلى ، كانت تحمل كتابها بيمينها تحتضنه في ابتسام ، وابتسامتها تتسع حتى السخرية ، حتى الانانية .. هذا مؤكد ... كانت بمفردها تغني « قطائف وطنيه للبيع » حتى انتهت بها الى جنون الضابط الغرير ، فظفى على كل شيء ... قالت وابتسامتها لا تفارقها :

- سأعود ... سأعود بالرغم منك ...

أجاب هو فى ارتباك :

- نحن لك بالمرصاد .. نبتكر المستحدثات للقضاء عليك ، على شخصيتك أين وجدت ..

ردت فى أنفة وثقة :

- أوه معذرة ، إن كنت ستخطب الآن ، فالمجال ليس مجالك يا عرييد...
تقدم نحو الشعاب .

<http://Archivebeta.Sakhril.com>

قالتها ، وكانت تجمع الاوراق التى طارت من أيديها من وقع الصدمة .. وبعد أن ضمت أوراق الكتاب الى صدرها ، رmqته بنظرة بعيدة ، ثم ضحكت عليه ، ضحكة كانت قوية ، شديدة الى أبعد حد .

... مثلى سيضحك عليك الى الابد ، لانى طفلة قاصرة ، ضعيفة ، لكن لا أخلو من كبرياء الجدود ، لا أجاملك مطلقا ، أقسم لك بشرفى .. لو عرفتني جيدا ما كنت تقدم على اغتيالى ... منذ أيام فقط قرأت قصة اسرائيلية ، ظننتها من مبتكرات الادب وقوة الخيال ، حتى اذا وصلت الى ذروتها رأيت كيف أن كاتبها قد شبه العربى بالكلب ... كلب ينبغى أن يشرد ، لا لشيء ... ما هو السبب ، كيف استساغ هذا الكاتب لنفسه تشويه جنسى ... هناك أشياء سلوكية لا دخل لي فيها الآن .. خذ هذه القصة يا حضرة الضابط وتمعن فى فصولها ، هذا لا يليق ... لا تخلو من رعونة .. إنى لا أجاملك ، فأنت فى الواقع مأمور ، لكن . لا تواجه الصبية والشيوخ

والنساء ، على الاقل أعط الوجه الحضارى والانسانى الذى تناسيته .. لا يليق بضابط من رتبتك أن يفعل ما أراه حقيقة ... هذا عيب اخلاقى كبير ... أقسم لك إنى سأقدم صورتى لمجلات الموضة والسينما .. وبدون تعليق ... إنى اتعجب من هذه العجرفة . لماذا لا تفكرون الا فى تصفيتنا ؟ هل أنتم على استعداد لاضافة شئ آخر الى اعتقادكم هذا ... مثلاً ... أو ... مثلاً .. أبدا ، لا جديد لكم سوى هذه الحديقة التى أنشأتموها لتفصل بين مدينتنا ووحشيتكم أوف !! لولا القصف لتوقفت عن هذا الغضب نهائيا ... لعدت الى الدرس الاول الذى لم أنته منه بعد . إنى ما زلت أذكر جو المرح السائد بمدارس أطفالكم فى حيفا ، أين ولدت وترعرعت !. حفلات السبت الطازجة بالالحن والاباحية ، حفلات الاحد ، حفلات كل يوم ... لماذا تنكرون علينا حقنا فى إقامة الحفلات ، ولو مرة فى السنة ، فى العشرين ... حقا إنه لعجيب أمركم ، سأحاول أن أدفن ما رأيت وأحسست . لكن سأعير كراريسى وأوراقى وكتبى لكل طفل فى العالم ، لبدء القراءة بعدى ، وسوف لا اشغل نفسى بالنتيجة ، فهى لا تهمنى كثيرا بقدر ما أرنو الى صفحة السماء الممتدة تجاه البحر وهى تحدثنى بهدوء عن العودة ، ومعى هيبه ووقار ، وسمة جديدة من سرحة الافق ، وحرية النظرة بابتسامة واضحة فى زرقه صافية تخالج الطيور المفردة فى اتجاه كل الدنيا .. الى كل الناس ..

يحيى محمد

تونس فى : 22 أوت 1982

الفرق

كل ليلة حين أسكن فى فراشى ، تلوث زفرائى الحارة هواء الغرفة ، تسألنى زوجتى :

- ما بك ؟

أقول ردى المعتاد :

- انى أغرق ..

تتنهد فى تبرم وتغمغم :

موال كل ليلة ..

- خائف عليك يا هبة ، اخشى غدر الزمان ..

تولينى ظهرها قائلة :

<http://Archivebeta.Sakhr.it.com>

- حسك فى الدنيا ، ربنا يطول عمرك ، تصبح على خير ..

أقول مغمغما :

- غدر الزمان غير مرتبط بعمرى ، يمكن حدوثه وأنا حى ..

ثم عقت ردا على صمتها :

- تصبحين على خير ..

الخير ذكرى عاطرة ، منذ نعومة أظافرى وكل خطوة فى حياة أبى مرتبطة بالخير ، حين يدق بابنا يقول « اللهم اجعله خيرا .. افتح يا ولد » .. حين يناديه احدا « أبى » يقول فى تلقائية « خير يا ولدى » ..

تركنا أبى ونحن رجال أشداء ، الآن ، كل منا رب اسرة ، كان زواجى من هبة عن حب ، أول ليلة ضمتنى الى صدرها فى حنان قائلة :

- انا معك قلبا وعقلا ، لا تحمل للدنيا أى هم ..

ضحكت ليلتها وقلت مداعبا :

- أى هم يا حبيبتي ، اننا فى بحبوحة والحمد لله ، رباط بيننا من الحب والمودة
لا اخشى عواصف الزمان مهما كان جبروتها ..

ثم رنوت اليها بعينين صادقتين مكملًا :

- ما دمت معى ..

ضربنا فى دروب الزمان بخطواتنا سنين عددا ، أخذ اعجابنا - خلالها -
بالشمس يفتر ، ويفتر حتى فقدنا الاحساس بها . لم يعد سطح البيت يضمنا
شتاء تحت أشعتها الدافئة ، لم نعد نرى القمر اللامع فى قبة السماء الا صدفة .
أخذت حياتنا تتعقد حتى صارت رزمة من العقد ..

انفاس هبة تتردد ، فى بطن ، فى اضطراب ، يستكين الشقاء طول النار ،
وفى الليل يغتالها ، مسكينة يا هبة ، ربة بيت ممتازة ، تشقى أكثر من شقائى
فى العمل ، بيتنا أشبه بملاعب لكرة القدم ، كل يجرى فى اتجاه ، الهدف اقلاق
راحتى ، وراحتيها - بقصد او بغير قصد - انهم الابناء ..

يراك الكثيرات منعمة ياهبة ، لديك الغسالة ، الثلاجة ، التلفاز ، البوتاجاز ،
المكنسة ، المكيف ، فلم لا يكون بيتك واحة راحة ، لدى زوجك السيارة ، فلم
لا تكونين فى قمة السعادة ، فليات هؤلاء ياهبة ، انى مستعد لمنحهم الاقامة
شهرًا فى هذه الواحة ، ماء الثلاجة يؤلم معدتك ، عيناك أرهقهما التلفاز فوضعت
« النظارة » التى وارت ملامحك الجميلة .. المكيف أصاب الصغير بالتهاب
رئوى ، الضجيج ثمنه الصحة ، هذا يسمع المسجل بموسيقاه الراقصة . ذاك
يرفع صوت التلفاز ليعكر مزاج الاول . الثالث يلعب الكرة فى الردهة الضيقة
الرابع يشاكس عصافيره لتصرخ بالغناء ، انا وانت نجرش الزلط حتى لا يقف
عشرة فى الحلقوم يكفى ان تنقطع الكهرباء يوما واحدا لينكد حياتنا لمدة اسبوع -
فما بالنا وهى تنقطع يومين لتصلنا يوما ، الماء اصبح كالقضاء ، نصحو فلا نجد
فى الصنابير نقطة توحد ربها على طرف اللسان ..

فليات هؤلاء ياهبة ، ساسلمهم ميزانية بيتنا ، هذا يحب الفسيخ ، ذاك لا يأكل الا المكرونة ، الثالث لديه هوس بالفاكهة ، الرابع ولد على شاطئ النيل وعقد اتفاقا ابديا مع الاسماك ، الجميع على اتفاق فى شىء واحد ، شبكة الدبوس يلزمها جراح ، وعكة المعدة يلزمها اشعة ، الارهاق من اللعب يلزمه رسم قلب ، الهدف هو ارهاقنا - بقصد او بغير قصد - انهم اولا واخيرا فلذات الاكباد ..

اعتقد ياهبة اننا نستوفى عذابنا فى الدنيا ، والا فما هذا الذى نحن فيه ؟ نبذنا حياة الاهل البسيطة ، الهائلة ، الوادعة ، الميسرة ، نبذنا الهدوء والسكينة اشترينا بحبات عرقنا الضجة والضجيج ، المرض والاسقام . كانت أمى «رحمها الله» تشمر عن ساعديها أمام « طشت » الغسيل بالساعات ، تقوم كالجمل لتعد طعام الغداء ، تقوم فى الخامسة لتعد الافطار ، تعجن وتخبز وتعد لنا شطائر الخبز الساخن بالسمن والسكر ، وفى كل حين تدعو الله الا يحرمها متعة هذا الشقاء ، وأن يزيد أفراد البيت ولا ينقصون . ما بالنا اليوم يا حبيبتي ، دائما تصرخين من ألم فخذيك لساعة جلستها مقر فصة لتنظيف زوج من الطيور تشعرين بالارهاق لمجرد الاستيقاظ فى التاسعة صباحا ، الصداع ورأسك فى رباط الى ان تحين الساعة ، أنا لا ألومك ياهبة ، فكلانا فى هذه الدنيا سواء ، يسرى فى حياتنا مبدأ حديد ، كلما قلت قيمتك فى الهيئة الاجتماعية اتخمت جيوبك بالمال ، تستفزنى علبة السجائر العالمية فى جيب منادى السيارات ، يحترق دمي فى طوابير السجائر ، الخبز ، الأرز ، الصابون ، اللحوم ، الكستور يذل أبدانى عامل الكهرباء ، أو النظافة ، وأى عامل فى أى حرفة من الحرف التى استحوذت على نتاج العصر المالى ..

الآن ياهبة ، بل قبل الآن بقليل طفح الكيل ، فاضت الهموم ولا شطآن تنجى من المهلك ، بين بحبوحة زمان وضنك . الآن فوهة بركان ابتلعت آدميتنا ، انسانيتنا ، ما نحصل عليه يكاد يكفيننا اليوم ، بالقطع لا يكفيننا غدا ، أعدى لنا القلل القناوى رغم ندرتها ، فتشى عن سمكرى ليصلح لنا مواعد الكيوسين واللمبات نمرة خمسة ونمرة عشرة ، افتحى النوافذ والأبواب لنعتاد على الذباب والناموس ، ولتذهب أبداننا الحساسة الى الجحيم ، دربى نفسك على القرفصة امام « طشت الغسيل » ، افسحى مكانا بالسطح لبنى فيه « الفرن » اما انتم يا اولاد الزمن الـ ٠٠٠ من لا يدع عنه هواه ، ويقبل حياتنا المقبلة فليرحل ، كلكم رجال ، كل يعتمد على ذاته والا فالموت أولى به ..

المحسوس والمفهوم

من خلال لغة القصة :

لست أدري كيف سيتيسر لي أن أطرح موضوع المفهوم والمحسوس من خلال لغة القصة دون أن ألجأ الى التعميم . ذلك أن المحسوس والمعقول هما إطار الفن ومادته بل أكثر من ذلك ، فكل نشاط انساني هو اصطدام وتصالح ، تكامل وتناقض ، تفاعل وانفعال ، تكوين وفساد تكوين ، انسجام ونشاز ، توازن وعدم توازن ، خضوع وتمرد بين ما يحسه الانسان من نفسه وعالمه وما يعقله من هذا وذاك ، الفن كتعبير عن حياة الانسان هو تصوير لهذه العلاقة . والفن كابداع هو بحث في هذه العلاقة . ضمن هذا الاطار العام ليست القصة التي هي نمط من أنماط الصناعة - الكتابة - التي تهدف الى وضع تصور في مادة أي وضع صورة بما يمكن أن تحس به الصورة وأن تفهم أو تعقل به في مادة اللغة . ولكن مشکل الكتابة - أو على الاصح - مشکل الابداع في الكتابة هو أن ما تحس به الصورة هو مادة سابقة ، لها صورتها الخاصة التي تبدو كتصور سابق عن تصورنا . وكذلك بل - وعلى الاخص - أن ما تفهم به الصورة هو دلالة أو مجموعة من الدلالات المصطلح عليها ، أي انها مفهوم أو مفاهيم سابقة على ما يمكن أن نستنتجه من مفاهيم من تجربتنا الخاصة .

إذا اعتبرنا القصة كنمط من أنماط الكتابة الادبية ، لها حدودها الخاصة التي تميزها عن الانماط الادبية الاخرى ، من شعر وتمثيلية ومقال وخاطرة وغير ذلك من فنون الكتابة لنا أن نلاحظ أن كتابة القصة في الادب العربي ، بصفة عامة ، تمارس اليوم ضمن حدود غير مضبوطة على أنه هناك شبه اتفاق ضمنى نلاحظه في النصوص القصصية أو في ما يكتب حولها من نقد وتعليق . هذا الاتفاق الضمني تتحدد داخله بعض المميزات التي يمكن أن تعتبر من الخصائص الاساسية للقصة لكن دون أن يسطر حدودا واضحة . من هذه المميزات أن القصة تعبر نمطا من الكتابة الادبية التي تهدف - فيما تهدف له - الى تمثيل الواقع أو جانب من الواقع المعاش أو المتخيل عن طريق

اللغة المكتوبة خاصة ، وعملية تمثيل أية ظاهرة من ظواهر الواقع المحسوس أو المفهوم ، المعاش أو المتخيل تستدعى استعمال عدة تقنيات وصيغ من الكتابة ، كالسرد والحوار والوصف. وإذا كانت هذه الصيغ الثلاثة التي اكتفيت بذكرها تعتبر ضرورية وبأهمية متفاوتة في نظر الكتاب والنقاد من أهمها عنصر الحكاية الذي يكتسى أهمية متفاوتة في نظر الكتاب والنقاد من أهمها عنصر الحكاية الذي يكتسى أهمية بالغة ويغطي أحيانا على كل العناصر التي تكون أو يمكن أن تكون النص القصصي سواء بتوظيف بعضها في خدمة الحكاية أو بالغائها جملة وترك المجال للحكاية وحدها . وكثيرا ما نرى في إنتاجنا الأدبي الحكاية تحل محل القصة وتأخذ عنوانها . وأحيانا تصبح الحكاية هي المحمل الذي توضع عليه كل عناصر القصة المكتوبة أو المجال الذي تنتظم داخله كل العناصر ، وسواء كانت الحكاية هي المحمل الذهني للقصة ، أو هي المجال المتخيل أو المنقول عن الواقع ، أو المنقول والمتخيل في نفس الوقت والذي تنتظم داخله كل العناصر المكونة للقصة ، أو النسيج الذي تتلاحم بمقتضاه كل العناصر . في كل هذه الحالات ، يبدو أن الحكاية تظل هي العنصر الاساسي الذي يجعل النص المكتوب أو نظام الدلالات في النص المكتوب يكتسب خاصيته كقصة . إن أهمية الحكاية في نظام الدلالات اللغوية في القصة تبلغ أقصاها عندهما نجد أنفسنا في حيرة ونحن نحاول الاجابة عن التساؤل التالي : هل يمكن أن نكتب قصة دون أن نحكي ؟ أو أن يكون في ما نود التعبير عنه باللغة ما هو قابل لان يحكى عن طريق اللغة وبأية صيغة كانت من الصيغ اللغوية ؟

إن الاجابة عن هذا التساؤل تكون بالنفي عندما نتأمل جل ما يكتب اليوم من قصة في الادب العربي . اذا استثنينا بعض المحاولات القليلة فان ما يحكى يظل هو المهيمن على أغلب الانتاج القصصي . وهذا لا يعد غريبا اذا نظرنا الى أهمية الحكاية في المجتمع الانساني عبر مختلف العصور . وهذا « رولان بارت » يذكرنا بأن (حكايات العالم لا حصر لها فهي أولا تعدد مذهل من الانواع التي توزع هي نفسها بين مواد مختلفة ، وكان كل مادة كانت صالحة لان يودعها الانسان حكاياه : الحكاية يمكن أن تكون محمولة باللغة المفصحة شفاهية أو مكتوبة ، بالصورة ، الثابتة أو المتحركة ، بالاشارة أو بالخليط المنظم لكل هذه المواد . إنها حاضرة في الخرافة ، الاسطورة ، المثل ، الحديث ، القصة ، الملحمة ، التاريخ ، المأساة ، الفاجعة ، الملهاة ، التمثيل الصامت ،

اللوحة المصورة ... فن البلور ، السينما ، المضحكات ، الانباء المتفرقة ،
المحادثة . وأكثر من هذا فى كل هذه الاشكال التى لا تحصر تقريبا . الحكاية
حاضرة فى كل الازمان ، فى كل الامكنة ، فى كل المجتمعات ، الحكاية تبدأ
مع تاريخ الانسانية ذاته (I) .

لعل سيادة الحكاية فى الكتابة القصصية تعود من غير مجازفة الى أنها
الشكل الأكثر شيوعا وتداولاً فى حياة الناس ، فالحكاية كانت - ولا تزال -
هى الصيغة المثلى لتمثيل حدث أو مجموعة من الاحداث المتسلسلة عن طريق
اللغة أو غيرها من المواد القابلة للتشكل حسب تصورات الانسان . وإذا
قلنا : إن الحكاية هى الصيغة المثلى لتمثيل حدث أو مجموعة من الاحداث
المتسلسلة فذلك يعنى أنها الصيغة المثلى للتعبير عن الزمن . فهل يكون
الزمان هو الاطار الذى يستحيل بدونه أن يتمثل الواقع فى أية صيغة من
الصيغ الفنية . وفى القصة على الاخص ؟ وهل يستحيل على مدارك الانسان
أن لا تحس بالواقع الا فى إطاره الزمانى ؟ . فهل الزمان هو المنظار السحرى
الذى لا يمكن لنا أن نرى الاشياء الا من خلاله ؟ .

(بالنسبة لنيوتن يعتبر الكون كمجموعة من الاشياء ، أما إبداع وتحديد
فضاء مطلق وزمان مطلق فليس الا لدراسة العلاقة بين هذه الاشياء) (2) .

وبالنسبة « لانشتاين » : (يعتبر الكون مجموعة من العلاقات فى زمان
ومكان متراميين من القدم . والزمان ليس الا بعدا رابعا للمكان) (3) .

وسواء كان الزمان افتراضا ضروريا لدراسة أو لادراك الاشياء ، أم هو
مع المكان الاطار الذى تتجلى فيه كل الظواهر التى أحسها من هذا الكون فهو
فى كلتا الحالتين المعطى الذى يبدو أنه لا يمكن أن تكون لى علاقة وغي بما هو
محسوس أو مفهوم من دونه . وفى مجال القصة بالذات فهل يمكن أن نقول
ع « برقسون » :

Communication . N°8 1966 . p. 1

(I)

ROBERT WALLIS : Le temps, 4e dimension de l' esprit - (2)
FLAMMARION

(3) المرجع السابق .

(أصلح الزمان فانك تصلح الاشياء) . وأن نقر بالدور الاساسى للحكاية فى تمثيل الواقع المعاش أو المتخيل بما أنها أثبتت نجاعتها فى تمثيل الحدث أو الاحداث المتسلسلة أى فى إعطاء النص القصصى زمنيته الضرورية لتصور العلاقات بين الاشياء . ولكن رغم ذلك فان الواقع كما أعيه ليس دائما استرسالا متواصلا فقط . أو حركة لا تهدأ مطلقا أو مادة متحولة ومستمرة فى التحول الى ما لا نهاية له . الواقع هو هذا أحيانا أو بعض هذا أحيانا أخرى . ولكنه ليس هذا فقط . الواقع هو ما هو غيرى وهو أنا فى نفس الوقت وأنا لست كائنا فى ما أفهمه من الكون ، أنا موجود وبالضبط فى ما أحسه من الكون وكما يقول « مليرلوبونتي » : (ليس هناك عالم معقول ، هناك عالم محسوس) (4) .

وهو يلاحظ أن العالم المحسوس ذاته الذى تنقلب فيه هو الذى يكون علاقاتنا بغيرنا . فعندما تلمس شيئا ما فانك تلمس نفسك فى نفس الوقت ، هذا لنفهم كم أن الاشياء هى امتداد لجسمى وهو امتداد للكون وعن طريقه الكون يطوقنى . وإذا لم أكن قادرا على لمس حركتى فان هذه الحركة منسوجة معي . ويجب أن نفهم أنه : عندما ألمس شيئا ما فأنى ألمس نفسى . العمليتان هما الوجه واللقفا هذه لتلك)

<http://Archivebeta.Sakhi.net.com>

هذه العلاقة الحميمة بين الأنا وما أحس به بل هذا الامتداد المتداخل بين هذا وذاك لا وجود لما يقابله تماما فى مجال المفاهيم وذلك لسبب واحد هو أن الكون كله ليس الا مجموعة هائلة من الظواهر الحسية التى لا يمكن أن تعبر الى وعينا الا عن طريق حواسنا . عن طريق مداركنا الحسية . وسواء كان ذلك فى علاقتنا المباشرة بالاشياء أو عن طريق ما تتمثل به فى الكتابة . والمفاهيم نفسها لا يمكن لنا أن نعلقها الا اذا كان لنا ما يقابلها فى تجربتنا الحسية ، وخير دليل على ذلك التجربة التى نشاهدها عند الاطفال والتى مررنا بها جميعا بدأنا فى تعلم الحساب عن طرق تحريك و لمس أصابعنا .

لكل هذه الاسباب يبدو أنه ما من سبيل الى تطور المفاهيم وتجديدها الا عن طريق تعميق الادراك بالمحسوسات . ولكن اللغة لا تطاوع فى ذلك الا بجهد

MERLEAU - PONTY : Le visible et l'invisible (GALLIMARD) (4)

جهيد ، اللغة كمفردات وكأنماط من الكتابة هي الحصن الحصين للمحافظة على المفاهيم والقيم والدرع الواقى لنظام العلاقات والمعاملات داخل المجتمع فهي تطاوعك فى التعبير عن المفاهيم السائدة ، وتجنح الى العجمة عندما تحاول تحميلها ما لم يألفه أصحابها من مفاهيم وأحاسيس . ولا تتدخل اللغة فى فرض المفاهيم السائدة فحسب بل تتعدى ذلك كما يقول « بينجمان لى وورف » : (لتساهم بقسط كبير فى هيكلة عالم المحسوسات عند الذين يتكلمونها وهو يرى كذلك أننا نفصل الطبيعة حسب الخطوط التى تسطرها لغتنا ...

فى حين أن العالم يطرح كدفع من التأثيرات التى من الضرورى أن تنتظم فى فكرنا يعنى أن تنتظم أساسا عن طريق نظمنا اللغوية . وإذا كنا مؤهلين لتفصيل الطبيعة قصد تنظيمها ضمن مفاهيم نسندها لها معانى فذلك خاصة لأننا وافقنا على تنظيم من هذا الطراز - الاتفاق الذى يكون جمعنا الناطق والذى يتقن فى هياكل لغتنا . الامر يتعلق بطبيعة الحال باتفاق ضمنى وليس باتفاق صريح ولكن شروطه مكبلة فعلا . حقيقة إن الكلام يستحيل علينا من غير أن ننتمى الى نظام العلاقة والتنظيم الذى سنه هذا الاتفاق ويضيف أن أى شخص لا يستطيع أن يصف الطبيعة بحرية ودون أى تحيز كان . ولكنه بالعكس من ذلك مرغم على أنواع من التأويلات وبالذات فى الوقت الذى يعتبر فيه نفسه أكثر حرية (5) .

يتضح من هذا كما هو الحال فى مجال المفاهيم ، ففى مجال المحسوسات أيضا علاقاتنا بواقعنا وبالكون هى علاقة مسبقة أو تبدو هكذا على الأقل وتتجاوز فى نظمها ما يمكن أن نسميه بتجربتنا الخاصة . إن علاقتنا بواقعنا تبدو هكذا فى ما يمكن أن نقوله عنها أو نمثله فى الكتابة ، والامر سيان فى ما نكتبه عما نفهمه أو فى ما نكتبه عما نحسه ، ولكن اذا كانت المفاهيم قابلة دائما لان تفصح عنها لانها هى اللغة ذاتها فى مفرداتها وفى ما اصطلح عليه فى مدلولات مفرداتها وفى ما هو مفروض بالمنطق السائد من تأويلات لنظم الترابط بين هذه المفردات . هذا بالنسبة لما هو مفهوم أما ما هو محسوس ، فالامر ليس هكذا دائما لان علاقتى بما هو محسوس لا تحدث دائما فى إطار

EDWARD T . HALL : La dimension cachée . (POINTS) (5)

ما هو مفهوم وغالبا ما يحدث أن ما أحسه أو ما أحس به لا يمكن أن أقول عنه شيئا لأننى لا أستطيع أن أقول عنه أى شىء وقد يكون ذلك لأنه يحدث فى مجال لا تشمله المفاهيم السائدة أو المسبقة . ومن أعمق تجليات المحسوس فى وعى الانسان هو كما يقول « مارلو بونتي » : (المحسوس هو : هذه الامكانية فى أن تكون بداهة وفى صمت) (6) .

وإذا كان الفن إبداعا . وإذا كانت القصة إبداعا علاقات جديدة بين الانسان وما هو سواه فان هذا الجانب المتمرد - مما هو محسوس - على اللغة والمفاهيم هو الوجهة التى تجنب لها عملية الابداع ، إنها تلك - الهندسة غير الواعية فى فكر الانسان التى يمكن لها اذا صعدت الى مستوى الوعى أن تبدع المفاهيم الجديدة وتفتح أزمنة أخرى وفضاءات أخرى لتفتح حدود الانسان على عالم جديد .

القصة اليوم هى ذلك النمط الادبى المرشح للاضطلاع مع الرواية بهذه المهمة ربما أكثر من غيره من الانماط الادبية الأخرى لأنه يمكن أن يوظف تقنياتها ضمن نسيج العلاقات فى نظام خطابه الخاص . والقصة كأنموذج من الكتابة والقراءة وكأداة اتصال وتواصل بين الأنا والكون وبين الأنا والآخر داخل المجتمع يبدو أنها لا يمكن أن تكون عملية إبداع مثيرة بالفعل الا اذا أعادت تمثيل العالم المحسوس ليس عن طريق ما هو مصطلح عليه بحيث تكون الصورة التى تقدمها بمثابة المصطلحات الادبية وبالتالى المفاهيم القبلية وإنما اذا أبدعت من الصيغ والتصورات ما يمكن معه إعادة تنظيم العلاقات بين ما هو محسوس وما هو مفهوم ، إنها الطريق نحو نظام جديد .

محمود التونسى

- تونس فى مارس 1983 -

أمي تموت على القمة

سألت : أين أنت يا أمي .

تعالى إلي .

قال البحر : لا تضيعي رأسك بحثا . أمك مجهولة مفقودة .

نظرت الى أعماق عيون النجوم : لا أمي موجودة .

وسرت في الطريق المتفجر حصي وأشواكا .

سألت الدرب : أنت معي فأين أمي .

قال : لا أدري . أخذوها منذ زمن بعيد مكبله العنق بالسلاسل ، وخلفها

أرجل غليظة ، وعيون وحشية وحراب .

صعدت العيون للافق ... غاب الطريق ولم تحضر أمي .

سبحت ... مشيت ... جريت ... صعدت الجبل . بحثت في الكهوف

ببعض الامل وقلت : أمي هنا يا جبل ؟

تزعزع كالجمل ... هدر ... لا أمك مرت منذ الازل نسيت وجهها ...

غاضبة أمك لان اخوتك مروا من هنا بحثا ... ثم عادوا نظروا الى السفح ...

الى القمة شهقوا ... وغابوا في الافق ... اخوتك لم يصعدوا القمة للبحث ...

نظرت الى صخور الجبل الناتئة وأشجاره المتشابكة ... يا لله كم هو شامخ ...

ما أصعب الارتقاء الى السماء ! تهت في الشوارع : هل تعرفون يا قوم أين

أمي ؟ بكوا في صمت ... أشفقوا على ...

ناداني القمر باسمي : لا تحزني ! أمك موجودة فينا ... مع بسمه كل

صباح وغروب كل شمس وطلقة كل رعد ... قلت : يا قمر زدني وضوحا :

كيف هي أمي ؟

فكر القمر : أمك مرت دامية الجراح ... نادت : لن أموت حطموها قيودي
يا أبنائي وضمدوا جراحي ... أصير أقوى ويطول بى الوجود .

... اختفى القمر ... افترشت الارض وجعلت جذع شجرة وسادتي
غفوت ... وبدأت أصرخ فى منامى ... أمى ... أمى ..

واذا بيد ترجنى وتهزنى فتحت عيني أحداقا كان الجذع قد كبر
وصار شجرة برتقال كبيرة تغطى الجبل .. ضمتنى وقالت : أنا أمك يا حبيبتي
وهنا قتلت . وهنا نبتت وولدت من جديد . سأدوم . ترين يا ابنتى أن أصل
ثابت فى الارض وفروعى مقصوصة الجناح فكيف لا تردين لى حريتي .

قلت : يا أم لن تسجنى . أنت قدرى وتحبرى . عانقتنى وأرضعتنى
عصيرها وخضرت عيوني بأوراقها . قلت : يا أم ان من حولنا يجهلونك بطلا
ولا يرحمونك أما . غضبت كثيرا ... اهتزت امتدت فروعها أكثر من ذى
قبل ... مدت الى بندقية وأشارت الى الجروح فى فروعها العالية ... عانقت
بندقيتى ومشيت نحو الجبل ... بلغت السفح ... رفعت بصرى الى أعلى .
كم هو عسير وخطير ... نحسست البندقية فوق صدرى وتوغلت فى الجبل
بقوة الامل ... نحو القمة الشماء .
<http://Archivebeta.Scienc>

سندريلا - نورة اليعاوى

ندوة القصة العربية

نظم اتحاد كتاب المغرب ندوة حول القصة العربية بمدينة مكناس من 22 الى 25 مارس 1983 شارك فيها كتاب من : تونس . الجزائر . العراق . سوريا . فلسطين . لبنان . مصر . وعدد كبير من الكتاب المغاربة . ورغم ان الساحة الثقافية في الوطن العربي اوسع مجالا وأكثر تنوعا مما يمكن ان يمثلها الكتاب الذين حضروا في هذه الندوة فانه كما جاء على لسان الاستاذ محمد برادة رئيس اتحاد كتاب المغرب في كلمة الافتتاح :

(اذا كان هذا الملتقى لا يتوجه الى الجمهور الواسع الا من خلال نشر العروض والمناقشات فان صيغته تسمح بتعميق الحوار بين القصاصين والنقاد والمهتمين . بعيدا عن سياق الاستعراض أو الحفاظ على الصورة التي يريد الكاتب أن يحافظ عليها في ذهن القراء ، ومن خلال المكاشفة والحوار قد نستطيع تحقيق تواصل مخصب يتمثل في إعادة النظر وإعادة صياغة الاسئلة وتقييم الانتاج من مسافة تسمح بموضوعية نسبية . لكن هذا الملتقى ، لكي يكون لحظة جدلية تنضاف الى لحظات أخرى شيدتها لقاءات وكتابات سابقة ، فانه لا بد أن يأخذ بالاعتبار بعض القضايا والمفاهيم التي تبلورت في السنوات الاخيرة وساعدت على تدعيم الادب بصفته مجالا متميزا لرصد الحياة والواقع والانسان ، لامن زاوية استنساخ مقولات وشعارات متداولة في الخطابات السياسية والادبولوجية ولكن من خلال مجموع المكونات النصية وما تنسجه من علائق ورموز ، عبر اللغة أساسا وبدون افتراض تطابق بين النص والواقع . إن تحرير الادب من الاسقاطات الجاهزة ومن التحليل المختزل هو ما يعيد له امكاناته في اضاءة الحياة وفضح تناقضاتها الملتصقة بالعلائق البشرية وبلغات الحديث) .

إن الاهداف التي تحدث عنها محمد برادة في كلمة الافتتاح لو تستطيع الندوة أن تحقق بعضها فسيكون ذلك كسبا كبيرا للادب العربي والمجهودات الكبيرة التي بذلها اتحاد كتاب المغرب في تنظيم هذا اللقاء لا شك أنها

مجهودات موفقة ، نأمل ان تمتد انعكاساتها ونتائجها لتركز أسس الحوار الشامل والمتواصل بين الكتاب والنقاد العرب .

أشغال الندوة : (عروض ومناقشات)

الاربعاء 23 :

ترأس الجلسة الاولى ادوارد الخراط (مصر)

عرض : نجيب العوفى (المغرب) القصة المغربية على خط التطور أم على حافة الازمة .

عرض : ليمنى العيد (لبنان) القصة القصيرة والاسئلة الاولى .

الجلسة الثانية ترأسها أحمد الياورى (المغرب)

عرض : إدريس الناقورى (المغرب) الواقعية الرمزية فى الاقصوة المغربية .

عرض : توفيق بكار (تونس) من أعماق التراث الى أقصى المعاصرة .

عرض : الياس خورى (لبنان) ملاحظات حول الكتابة القصصية - اللغة - الراوى - الكاتب .

الخميس 24 :

الجلسة الاولى ترأسها توفيق بكار (تونس)

عرض : عبد الرحمان مجيد الربيعى : حول تجربتى فى كتابة السيف والسفينة .

عرض : خالدة سعيد : ملاحظات حول « الجبل الصغير » مجموعة قصصية لالياس خورى .

عرض : ادوارد الخراط (مصر) تجربة القصة القصيرة فى مصر خلال السبعينيات .

الجلسة الثانية ترأسها يمنى العيد

عرض : مبارك ربيع (المغرب) سفر الطاعة .

عرض : عبد الفتاح كيليطو (المغرب) : زعموا أن ... ملاحظات حول
كليلة ودمنة .

عرض : محمود التونسي (تونس) المحسوس والمفهوم من خلال لغة
القصة .

عرض : عبد الرحيم المؤذن : أدبية النص ، حلل فيه مجموعة من القصص
المغربية .
الجمعة 25 :

الجلسة الاولى ترأسها محمد برادة

عرض : فلاديمير شائال (مستشرق روسي) حول القصة العربية
المتجمة الى الروسية .

عرض : هاني الراهب (سوريا) ما هي هذه الازمة ؟ آراء حول الكتابة
القصصية .

عرض : السيد محمد بجرأوي (مصر) يحيى الطاهر عبد الله كاتب
القصة القصيرة .

(اثر العرض وقع الاستماع الى قصة مسجلة بصوت الكاتب عنوانها :
هكذا تكلم البراق) .

الجلسة الثانية ترأسها الياس خوري

مائدة مستديرة حول الكتابة النسائية شاركت فيها ليانة بدر ، خالدة
سعيد ، خنائة بنونه (قالت : انها أعلنت الصمت وقرأت قصة) .

الجلسة الختامية :

ادوارد الخراط ، الياس خوري ، يمني العيد ، محمد برادة ، خالدة سعيد ،
صبري حافظ ، عينهم السيد رئيس اتحاد كتاب المغرب لكى يتحدثوا في
المحاور الثلاثة التالية وذلك كحوصلة لاعمال الندوة :

(1) الكتابة الحديثة وعلاقتها بالتراث .

(2) علاقة القصة القصيرة بالفنون الاخرى .

(3) النقد وانتاج المعرفة .